جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية

سلسلة تصدر

غرة كل شهر عربى

الجذور التاريخية والجسور الحضارية

بين الإسلام والغرب

القسم الأول

أ . د . محمد محمد أبو ليلة

العدد ٦٩

القاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

29

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

الجذور التاريخية والجسور الحضارية

بين الإسلام والغرب

القسم الأول

أ. د. محمد محمد أبو ليلة

العدد [٦٩]

القاهرة ذو القعدة ١٤٢١هـ - فبراير ٢٠٠١م

يشرف على إصدارها

الدكتور/ محمود حمدى زقزوق
وزير الأوقاف
ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبدالصبور مرزوق
نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

مقدمة

يقوم هذا الكتاب على بحث كنت قد أعددته وألقيته فى المؤتمر الدولى التاسع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية والمنعقد بالقاهرة فى الفترة من ٨ - ١١ ربيع الأول ١٤١٨هـ / ١٣- ١٦ يوليو ١٩٩٧م . وكاستجابة لطلب جمهور الحاضرين واستحثاث بعض الأساتذة الأعلام الذين أثنوا على هذا البحث قمت بتطويره وتوسيعه وإضافة الكثير من المادة العلمية الجديدة إليه مع الإشارة إلى أحدث المصادر فى هذا المجال .

يتناول هذا الكتاب علاقة الإسلام بالغرب وموقف الغرب من الإسلام ، وفيه أتتبع الجذور التاريخية لهذه العلاقة والجسور الحضارية التى ربطت بين المسلمين والغربيين وأبعاد كل من الصراع الدينى والسياسى ووسائلهما ، وكذلك التواصل الحضارى والتبادل العلمى والثقافى بينهما . هذا مع التركيز على الوضع الحالى للمسلمين فى أوروبا وعلى الموقف الغربى تجاه المسلمين والذى يتسم عموماً بالتوتر والتوجس ويصدر عن خوف مرضى وذلك بسبب تواجد المسلمين وتزايد عددهم فى أوروبا وأمريكا .

وفى هذا الكتاب أعرض مع التعليق بعض الكتابات والإصدارات الغربية التى ظهرت مؤخراً حول الإسلام والمسلمين ، وينبغى أن أوضح سلفاً صعوبة هذا الموضوع وامتداده وتشعبه وحساسيته وتعقيداته أيضاً ، وبالتالى فإنه

من الصعب أن أوفى هذا الموضوع حقه من جميع جوانبه ، فى كتاب واحد من هذا الحجم . وعلى أى حال فإننى سوف أحاول جاهداً أن ألم بأطرافه وأبين أبعاده وأهدافه بقدر المستطاع وبطريقة علمية وتحليلية تصل بين الحوادث المتفرقة وتجمع بين الحقائق المتناثرة وتصل إلى ما وراء الأحداث التاريخية من مقاصد وأغراض ، ملتزمين من جانبنا بالروح العلمية المجردة .

إن علاقة المسلمين باليهود والنصارى تقوم على أصول تاريخية ثابتة ، فقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم أهل كتاب وبأنهم أمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام .

وأنهم مؤمنون بأصل التوحيد والنبوات والمعجزات وقد أنزل الله تعالى عليهم التوراة والإنجيل هدى ونوراً وأمرهم بالعمل بما فيهما ، وأحل الله طعامهم ونكاح نسائهم للمسلمين ، وحكى القرآن قصص أنبيائهم وبعض صالحيهم وما جرى لهؤلاء الأنبياء مع أقوامهم .

كما حث الله تعالى المسلمين على أن يصلوا أهل الكتاب ويبروا بهم ما لم يكونوا مقاتلين .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾[1]

---

(١) الممتحنة : ٨ .

أما إذا كانوا محاربين فإنه يباح للمسلمين محاربتهم وصد عدوانهم ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾[1] .

فأمر الله المسلمين بعدم ولاية غير المسلمين مشروط بإعلان الحرب وحمل السلاح عليهم .

ومع ذلك يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾[2] .

قال تعالى هذا بعد أن أمر المسلمين بإعداد العدة للحفاظ على هيبة الدولة المسلمة .

هناك أصول دينية مشتركة بين المسلمين واليهود والنصارى يشهد بها القرآن الكريم وتؤكدها السنة النبوية الشريفة ويتخلل هذه الأصول المشتركة دقائق وتفاصيل لبعض الأشياء وبعض الحكم والأمثال والأحكام الشرعية والمبادىء الخلقية والسلوكية التى تضمنها الوحى السابق ولكن ينبغى أن نلفت إلى الاختلاف بيننا وبين اليهود والنصارى فى تفسير

---

(١) الممتحنة : ٩ .

(٢) الأنفال : ٦١ .

هذه الأصول المشتركة بين القران وكتبهم ، إذ أنهم يزعمون أن محمدا قد انتحل من هذه الكتب ، أما المسلمون فيعتقدون أن هذه الأصول المتفقة إنما هى بقايا مما استنقذه الله من تحريفاتهم وتعدياتهم على كلامه عز وجل ، ليكون ما استنقذه الله عز وجل ، دليلاً على وحدة الأصل ، وليكون حجة كذلك فى أيدى المسلمين على تحريفهم وعلى إنكارهم لنبوة محمد ﷺ .

المبادىء الخلقية والقيم الدينية من الأمور التى تجمعنا بالغرب النصرانى اللهم إلا ما دخل على النصرانية مما هو ليس منها كتحريم الختان وإباحة أكل لحم الخنزير الذى أحله لهم بولس فى رسائله ، وما أباحته العلمانية والقيم المادية فى الغرب فيما بعد ، كالحرية الجنسية ، وترخيص البغاء وغير ذلك مما هو خارج على تعاليم الأديان السماوية ، وعلى الرغم من هذا فقد ظلت الأصول الخلقية متينة وقوية ومتغلغلة فى نفوس عامة النصارى لأن تعاليم الأديان فيما يخص العقائد والأخلاق واحدة تقريباً ، فالزنا محرم فى الديانتين وغض البصر مأمور به بشدة فى القرآن والأناجيل ، والصدق والأمانة ونبل النفس ومكارم الأخلاق ، كلها نقاط التقاء بين النصرانية والإسلام أو هى تعاليم واحدة لأنبياء متعددين ، يقول النبى ﷺ : [**الأنبياء أبناء علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد**] . والدين هو الطريقة والمنهج ، والعلات هن الضرائر .

ينبغى أن يكون معلوماً أننا نتكلم هنا عن التعاليم الدينية لا عن الممارسات الشاذة والخروج على هذه التعاليم ، وإلا ظلمنا الأديان والقيم الراسخة .

ولا يفوتنا أن نشير إلى الحدود الجغرافية المشتركة والتى تجمع أوروبا والدول الإسلامية وكذلك اللغة المشتركة ؛ فقد كانت هذه الدول تتكلم اللغة العربية كلغة علم وثقافة فى العصور الوسطى إلى جانب بعض اللغات واللهجات المحلية - حيث كانت اللغة العربية هى لغة العلماء والمفكرين والباحثين فى البلدان الأوروبية ، وعبر هذه اللغة نُقلت العلوم والخبرات الإسلامية بشكل عام إلى الدول الأوروبية .

وقد نهلت الشعوب الغربية من الحضارات الإسلامية عندما كانت فى أوج عظمتها سواء فى شكل بعثات كانت ترسلها إلى الأندلس أو بغداد أوغيرهما من الحواضر الإسلامية ، أو فى شكل وفود دبلوماسية وزيارات علمية ، أو فى شكل ترجمة للكتب العربية إلى اللغة اللاتينية .

ومن العوامل التى يجتمع عليها المسلمون والغربيون ظاهرة الزهد والتصوف وما يتصل بهما من مظاهر ، مثل الاحتفال بالأولياء ، الخلوة ، اتخاذ مظاهر معينة كعلامات مميزة لأهل الطريقة ، لها وجودها الظاهرى عند أهل الديانتين وينبغى أن ننبه هنا على أننا لا نقر واقعاً ، ولا نحكم على مثل هذه الطرق والاحتفالات بالصواب أو الخطأ أو بالبدعة أو التمسك بالعقيدة السلفية ، وإنما فقط نبحث عن السمات المشتركة فإن

للصوفية المسلمين طريقتهم المتميزة وأصولهم المستقلة ، ولهم كذلك عقائدهم وعباداتهم التى لا يمكن أن تنفصل عن الإسلام ، والقاسم المشترك لكل هو الزهد والتجرد والتفرغ للعبادة كل على طريقته ، ومن هذه السمات المشتركة الفلسفة والعلوم اليونانية التى نقلها العرب إلى اللغة العربية وطوروها وأضافوا إليها الشروح والتعليقات ونفخوا فيها من روح الإسلام والعروبة والتى أخذتها أوروبا فيما بعد عن المسلمين عن طريق الترجمة ، سواء المباشرة ، من اللغة العربية أو من اللغة العبرية إلى اللاتينية ؛ وقد أفادت كلاً من المسلمين والغربيين من التراث الرومانى والشرقى سواء عن طريق القنوات العربية الإسلامية مباشرة أو عن طريق الترجمة من اللغات الشرقية الأخرى ، تلتقى النصرانية مع الإسلام أيضاً وبصورة عامة فى محاربة الوثينة ، وإن كانت النصرانية تعتبر كل ديانة فى العالم غير النصرانية ديانة وثنية ، أضف إلى ذلك أن مفهوم الوثنية فى النصرانية غير واضح إذ أن مشكلة التثليث كانت وسوف تظل عقبة دون المفهوم الصحيح للتوحيد الذى جاء به كل الأنبياء ولا ننسى هنا ، ونحن نحاول إبراز السمات اللاهوتية أو الكلامية المشتركة أو المتقاربة ، بين الديانتين أن نشير إلى نزعة التسامى فى الديانة النصرانية على الديانات الأخرى وشعورها بالتفوق المطلق عليها فهى تعتبر الديانة اليهودية ديانة قديمة وحرفية وعنصرية وتعتبر كتبها " عهدا قديماً " مضى وانتهى ، وفى المقابل تعتبر

النصرانية وكتبها " عهداً جديداً " وتطلق على الكنيسة " القدس الجديدة " وهى لا تعترف بالإسلام كدين إلهى ولا بمحمد ﷺ كنبى مرسل ، وهذا الشعور بالتسامى يشكل السمة الرئيسة للحضارة الغربية . بل إن بعض النصارى قد غالى فقال إن الإسلام بدعة نصرانية كما سنذكره بالتفصيل والتدليل فى موصعه من هذا الكتاب .

ومن المشابهات بين النصرانية والإسلام القول بالبدعة ، يعنى الخروج على الأصل وهذه المشابهة عامة لا تعدو المنهج والتنظير ، أما الموضوع ذاته فمختلف تماماً .

فالبدعة فى نظر النصرانية هى الخروج على تعاليم الكنيسة ومقررات المجامع الكنسية ، وهذا يعنى الخروج على عقيدة التثليث والصلب والفداء والكفارة والتجسد وهى أمور لا يقرها الإسلام وربما ذهبنا أبعد من ذلك فقلنا إن هذه العقائد نفسها تعد بدعاً بالنسبة لرسالة المسيح – عليه السلام – الأصلية ، وإن هذه المعتقدات إنما ظهرت بعد مؤتمر نيقية عام ٣٨٤م الذى قرر فيه أغلبية الحاضرين اعتبار التثليث هو أصل العقائد The canonical Creeds وأن ما عداه بدع ينبغى أن تحارب وأن يحرم الخارجون عليها من حق التمتع بالانتماء إلى الكنيسة والجماعة النصرانية .

***

الباب الأول

تاريخ العلاقات الإسلامية الغربية وآفاقها

تحت هذا العنوان نستعرض بالدراسة والتحليل تاريخ العلاقات الإسلامية الغربية وآفاقها ، فى محاولة منا لاستلهام الماضى وتقويم الحاضر واستشراف احتمالات المستقبل . يعيش المسلمون الآن حقبة من أشد حقب تاريخهم توتراً ، فبعد أن كان الصراع قائماً بين الشرق والغرب إذ به يتحول بعد سقوط الاتحاد السوفييتى والأمن النسبى الذى شعر به الغرب ، إلى صراع بين الشمال والجنوب ، والشمال هو أوروبا ، وباقى الكتلة الغربية ، والجنوب هو العالم الإسلامى . إن هناك فى الغرب من يروجون لفكرة وجود صراع حضارى وثقافى ، وحتى عسكرى بين الشمال والجنوب ، متوقعين لهذا الصراع أن يسفر أخيراً عن انتصار الحضارة الغربية على جميع الحضارات . روج لهذه الفكرة فريق من العلماء الغربيين بل ربما اعتبرها بعضهم نبوءة استعجلوا وقوعها ، ومن المروجين لهذه الفكرة برنارد لويس Bernard Lewis ، دانيال. بايبس Danial Pipes ، وصموئيل هنتنجتون Samuel Huntington .

وبينما يذهب هؤلاء الثلاثة إلى وجود الصراع بين الحضارة أو الثقافة الغربية ومثيلتها الإسلامية فإن كاتبا غربياً آخر هو

فرانسيس فوكوياما يتفق معهم من حيث مبدأ وجود الصراع بين الحضارات والثقافات ولكنه يختلف عنهم من حيث ديمومة هذا الصراع ، إذ يزعم أن الصراع كان قائماً بالفعل بين هذه الحضارات ، ولكنه الآن حسم وانتهى لصالح الحضارة الغربية التى صارت أحادية ، وانتهت إليها زعامة العالم والهيمنة عليه بأسره ، وبالتالى وجب على الجميع أن ينصاع لها وهذا زعم ووهم ليس له وجود فى واقع الأمر بل إن صاحبه نفسه كما يقول الدكتور أحمد كمال أبو المجد لم يستطع أن يدلل عليه (١) .

إن الحضارة الغربية وإن بدت على قمة حضارات العصر فإنها ليست الحضارة الوحيدة فى العالم ، إذ أن هناك حضارات أخرى تتكامل وتتواصل ، ولا أقول تتصارع ، معها . والحضارة الإسلامية بعمقها التاريخى وفقهها بطبيعة الحياة وسنتها ، ومطالب وحاجات الإنسان لم تأفل ، ولم تذبل بل هى حية وفاعلة لأنها حضارة متجددة لها عمقها التاريخى البعيد وامتدادها الروحانى المديد ؛ هذا إلى جانب شمولها وواقعيتها وصلاحيتها للتطبيق . والحضارة الإسلامية حضارة منفتحة وواعية ، ومنتقية لا تعادى أى عمل صالح يخدم البشرية ، ويهدى خطاها نحو التقدم المادى والروحى ، وفى الوقت نفسه

---

(١) انظر الإسلام ومستقبل الحوار الحضارى . سلسلة قضايا إسلامية . القاهرة . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عدد ٩٥ . ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م . ص ٥٥ ، مجلة المجتمع الكويتية .

فإن لديها من عوامل المناعة والقوة ما يجعلها قادرة بحق على طرد الجراثيم والميكروبات الضارة عن نفسها .

إن موقف الغرب من الإسلام اليوم هو فى الغالب كموقفه السابق منه ، ويرجع هذا الموقف إلى يوحنا الدمشقى الذى ولد بعد الهجرة النبوية بحوالى خمسين عاماً والذى تصدى للإسلام فطعن فى كل شىء فيه تقريباً . ولقد استمرت هذه الروح العدائية المناهضة للإسلام حية ومتقدة حتى اليوم كما يقول دانيال نورمان فى كتابه الإسلام والغرب . وكان من الطبيعى أن توجد أنواع مختلفة من الأفكار والآراء المعادية للإسلام ، ولكنها دارت جميعاً فى الفلك نفسه وسارت على الخطى والمنهج نفسيهما .

إن الغرب الأوروبى والغرب الأمريكى كلاهما له وجهة نظره الخاصة بالنسبة للإسلام ، والتى حددها لنفسه منذ زمن بعيد ، والتى تشكلت على مدار قرنين من الزمان أو بعد عام ١١٠٠م تحديداً . هذا الموقف تحسن قليلاً ، بدرجة قد تقاس بفسخ الشعرة بدون مبالغة ، وبطريقة بطيئة تقاس بحركة السلحفاة دون مغالاة . هذه الضآلة وهذا البطء فى تغير الموقف الأوروبى من الإسلام ليس مرده فقط إلى توارد أو استمرار الكتاب الغربيين فى العمل على إبراز المواقف العدائية وإذكائها ضد الإسلام والمسلمين ، وإنما هى بقاء المشكلة نفسها التى اندلعت منها كل الشرور . إن نقاط الاختلاف بين النصرانية والإسلام لا تزال قائمة حتى اليوم . هذا ما ذكره الكاتب الإنجليزى نورمان دانيال المشار إليه .

ولكننا نرى أن الاختلاف فى المعتقدات بشكل عام أمر وارد وطبيعى ، بل إن هناك عشرات ومئات الأديان السماوية والوضعية المحلية والعالمية قد عدلت الكنيسة وعموم الأمم النصرانية موقفها منها ؛ فاليهود على سبيل المثال لهم موقف صريح من المسيح نفسه ومن أمه ، ولأحبارهم كذلك آراء فيهما ، وفى النصارى ، والعقائد النصرانية قد تصل إلى حد العدوانية والإنكار وتبادل اللعنات ، بل وتدبير المؤامرات ومع ذلك فقد أصدرت الكنيسة وثيقة بتبرئة اليهود من دم المسيح ، وقد أصدر الفاتيكان أيضاً وثيقة ندم وطلب مغفرة من اليهود بسبب تفريط الدول الأوروبية فى حمايتهم من الحروب النازية كما سنذكره تفصيلاً فيما بعد . وقد استمر الصراع بين المسلمين والغربيين والتشبث بالعقلية الغربية برغم انقسام أوروبا إلى كاثوليكية وبروتستانتية وتزايد نزعات الإلحاد والشك . ولا تزال هذه الروح تسيطر عليهم على الرغم من تنامى عملية الفهم المتبادل والاتصال المستمر بشكل عام بين الفريقين فى الوقت الراهن ، وهذه الروح قد أثرت بلا شك على المواقف الأوروبية . ونضيف إلى ملحوظات نورمان دانيال أنه حتى بعد انقسام الشعوب اللاتينية وظهور الدول المختلفة فى أوروبا ، بل وفى عصر فصل الدين عن الدول وغلبة سلطان العلم والعلماء على سلطان الدين ورجال الكنيسة فإنها لا تزال تسدد الضربات ضد الإسلام والمسلمين دون ما تفريق بين العقيدة والمعتقدين .

وللنصارى وآباء الكنيسة آراؤهم المتشددة ضد اليهود عبر التاريخ ولكن الأمر بالنسبة لليهود واليهودية قد اختلف تماماً فقد أصدر الفاتيكان وثيقة تبرىء اليهود من دم المسيح عام ١٩٦٥ وأعلن النصارى أكثر من هذا ، امتنانهم لليهود لأنهم أنجبوا للعالم المسيح عليه السلام وأخيراً أصدر الفاتيكان وثيقة أخرى تعتذر إلى يهود العالم بل وتطلب منهم الصفح والغفران بسبب تقاعس الكنيسة عن حمايتهم من المذبحة التى أعدها لهم النازى . ومن أعوام قليلة استقبل الحاخام الأكبر ليهود إيطاليا فى الفاتيكان فى زيارة رسمية ، وغرس شجرة فى ساحة كنيسة القديس بطرس كرمز لاستمرار وتجدد العلاقة بينهما . ونتساءل هنا هل جاء هذا الموقف الجديد للكنيسة نتيجة للحوار اليهودى النصرانى " أم نتيجة لانتشار ونفوذ اللوبى اليهودى فى أوروبا وأمريكا " أو أنه جاء نتيجة وثمرة لجهود المسيحية الصهيونية أم أنه نتيجة طبيعية لاتفاق المصالح والأهداف بين اليهود والغرب . إن استمرار المشكلة قد أعطى طابع الاستمرارية لنفس اللون من النقد الغربى ضد الإسلام ، وحتى عندما حدث بعض التغير النسبى فى الموقف فى العصر الحديث ، وعندما حاول بعض الكتاب الغربيين بوحى من ضمائرهم ، أن يتحرروا من هذا الإرث الثقيل ، ومن المواقف الأوروبية المتطرفة ضد الإسلام والمسلمين ، فإنهم لم ينجحوا فى محاولاتهم كما توقعوا ولم يستطيعوا بعد أن يحفروا ولو جدولاً صغيراً من الإنصاف على

هامش التيار العام والجارف . بل ربما أصبحوا هم أنفسهم مهمشين فى المجتمع الذى يعيشون فيه . لقد شعر هؤلاء الذين يمكن أن نسميهم بالرواد ، وكأنهم يسبحون ضد التيار ، ولكن ربما يصبح هؤلاء المهمشون مراكز ثقل ، ويصبح فكرهم رائدا فى تنوير أوروبا وترشيد آرائها ومواقفها تجاه الآخر يوما ما .

فى عصرنا الحاضر بدأت تظهر على الساحة الدعوة إلى الوفاق بين أهل الأديان عن طريق الحوار ولكن لابد أن أنبه سلفاً على أن الدعوة إلى الدخول فى حوار أومناظرة حكيمة مع غير المسلمين قديمة قدم الإسلام نفسه وقد عقدت المؤتمرات المحلية والعالمية فى جهات كثيرة من العالم . ولقد تولت بعض الحكومات الإسلامية نفسها الدعوة إلى الحوار وذلك من منطلق دينى وحضارى ولكن بعض الكتاب الغربيين قد أخذ علينا أن الحوارات التى جرت فى بلادنا قد تمت بتوجيه وإدارة جهات حكومية ، ولم تكن عملاً شعبياً ، وليس فى هذا العمل قدح لأن الحاكم المسلم ممثل للدين كما هو ممثل للدولة . وللأسف فإن حصاد هذه المؤتمرات لم يتعد غالباً أكثر من اجتماع ممثلى الديانات المختلفة فى مكان واحد ، وتعارفهم بعضهم على بعض ، وفى نشر عدد من الكتب والبحوث فى موضوعات الحوار هذا ولم يتضح بعد تأثير الحوار بين المسلمين والمسيحيين على الساحة ، ولست أقصد بتأثير الحوار وظهور آثاره أن يزداد عدد الداخلين فى الإسلام مثلاً أو عدد المتنصرين من المسلمين ،

ولست أقصد كذلك ما قصده أحد النصارى المعنيين بموضوع الحوار من فتح أبواب العالم الإسلامى كلها دون قيد أو شرط للمنصرين أو السماح ببناء كنائس فى مكة والمدينة ، كلا لست أقصد هذا أو ذاك ، وإنما أقصد بقولى هذا أن الحوار ينبغى أن يكون من ثماره خلق جو عام من الود والثقة والإنصاف والموضوعية وأن يتخلص كل منا مما لديه من جوانب سلبية وظنون وتوجسات وعندية لا تتصل بأصول العقيدة .

والعمل كذلك على حل مشكلات الأقليات الدينية فى العالم وبالذات فى مجال الأحوال الشخصية والمعاملات ، فإن العقائد والعبادات لا مساس بها وقد أقر العالم ذلك بشكل عام .
إن الفاتيكان بالرغم من إظهار الاهتمام بالحوار ، عن طريق تشكيل المجلس البابوى للحوار بين الأديان فى عام ١٩٦٧ وذلك بعدما ظهرت الضرورة إليه فى المجمع المسكونى الذى انعقد فى الفترة ما بين ١٩٦٣-١٩٦٥ فإن الفاتيكان لم يصرح بنبوة محمد ﷺ مثلاً ، ولكنه اكتفى بإعلان أن الإسلام دين خلاص ، وبأن المسلمين يستحقون الاحترام لأنهم يعتقدون فى الإله الواحد الحى القيوم الرحيم القوى مبدع السموات والأرض الذى تحدث للإنسان . " وبأنهم لا يعترفون بعيسى كإله ، إلا أنهم يحترمونه كنبى ، كذلك يقدرون مريم العذراء وفى بعض الحالات يتوجهون إليها بورع . وزيادة على ذلك فإنهم ينتظرون

يوم القيامة حتى يصدر الله حكمه على أولئك الذين ماتوا . وختاماً فإنهم يقدرون القيم الخلقية ويعبدون الله من خلال الصلوات والصدقات والصوم " فالوثيقة الفاتيكانية إذ تتحدث عن المسلمين وكأنهم أيتام فقدوا نبيهم وقرآنهم كما فقد الأيتام آباءهم . وزيادة على ذلك فإن الوثيقة لم تشر لا من قريب ولا من بعيد ، إلى القرآن ، أو النبى ﷺ ، أو الوحى الإلهى أو السنة .

وإنه على الرغم من تقديرنا لمحاولة الفاتيكان التى لا تزال فى طور النطفة الأمشاج فإننا نرى أن الأثر الذى أحدثته عبارات هذه الوثيقة لم يرق بعد إلى مستوى التقويم ، سواء على الصعيد الثقافى أو الصعيد السياسى أو الصعيد العملى بشكل عام ، على سبيل المثال فإنه من الملاحظ أن الفاتيكان لم يقف موقفاً حاسماً تجاه مأساة مسلمى البوسنة والهرسك ، وقضايا أخرى تهم المسلمين وتؤثر على سلام عموم العالم . كما أنه لم يفعل شيئاً يذكر تجاه قضايا إسلامية أخرى وأهمها القضية الفلسطينية إذ لم يصدر عن الفاتيكان بشأنها أكثر من اقتراح تدويل القدس ، وهذا الاقتراح لا يحل قط قضية المضطهدين الفلسطينيين مسلمين ونصارى ، الذين هم أصحاب الحق الشرعى فى فلسطين بما فيها القدس .

وكنا ولازلنا نأمل فى أن يكون موقف الفاتيكان أكثر إيجابية تجاه القضايا الإنسانية المصيرية بغض النظر عن الدين والجنس واللون ، وهذا لب الحوار والغرض المنشود منه .

ولا ينبغى لنا هنا أن نهمل الإشارة إلى أن المحاولات التنصيرية لا تزال تستهدف العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، ولا تزال الكنيسة تعتبر الحوار أداة من أدوات التبشير ، وتخلط بين العمليتين . وهذا ما تصرح به كتابات وقرارات ومؤتمرات التنصير العالمية التى سنتكلم عنها فى هذا البحث بشىء من التفصيل والتأصيل . بل إن الفاتيكان نفسه ومجلس الكنائس العالمى لايعتبر الحوار مع المسلمين بديلاً عن التنصير ، إنهم يرونه مكملا ومساعدا له . وكما سنرى أيضاً فإن المنصرين وبعض السياسيين فى الغرب قد كثرت توقعاتهم بل تنبؤاتهم حول مصير ؛ الإسلام وسرعة دخول عموم المسلمين فى النصرانية .

وأى قارىء لكتاباتهم أو مستعرض لتقريراتهم يحس على الفور أن الإسلام يحتضر ، وأن المسلمين قد أسلموا دينهم لأعدائه ، وتركوه لمصيره ويتخيل كذلك أن المساجد قد تحولت مآذنها إلى أبراج علقت عليها الأجراس ، وتحولت محاريبها إلى مذابح ، وساحاتها اكتظت بالأيقونات والصور والصلبان والشمعدان ، وآلات الموسيقى وكتب التراتيل .

إن الإنسان عندما يعيش فى الخيال ويقع صريع الأمانى ينفصل عن الواقع ويبنى فى الوهم ما هو عاجز عنه بالفعل فى عالم الإمكان ، وهو فى سبيل تحقيق ما يتوهمه يستكثر من الخطط والمحاولات والوسائل والادعاءات أياً كان شكلها وحجمها وطبيعتها ، وكيف يجوز هذا الوهم والعالم الإسلامى تمتلىء

مساجده بالمصلين وتفيض بهم فى الجمع والجماعات والأعياد علماً بأن عدد المساجد فى زيادة مطردة حتى فى العالم الغربى نفسه ، ويخرج إلى الحج والعمرة ملايين المسلمين من جميع البقاع ، ويصوم الملايين من المسلمين والمسلمات شهر رمضان فى كل القارات الخمس . وعلى الرغم من هذا كله فإن المنصرين لا يزالون يصورون الإسلام بالصورة نفسها التى اعتادوا أن يصوروه بها ، وهم يستغلون فى تعميق هذا المعنى ما هو موجود بالفعل - وللأسف - بين المسلمين من تفرق فى الكلمة ومن اختلافات مذهبية ومن شدة إقبال على مظاهر الحضارة الغربية ، وتبنى بعض الاتجاهات العلمانية ، وكأن النصرانية بعيدة كل البعد عن مثل هذه العلل والمخالفات التى أخذوها على الإسلام . إن السياسة التنصيرية تعتمد كثيراً على الدهاء وعلى استغلال الظروف والاختراق والالتفاف فإنهم مثلا قد استغلوا التوسع الاستعمارى فى بلاد المسلمين لنشر النصرانية كما يعترف به كثير منهم ، حيث كثرت إرسالياتهم ومدارسهم ومستشفياتهم التنصيرية ، وكذلك توسعوا فى طباعة الكتب والإصدارات وعقد المؤتمرات ، وسوف نتكلم عن نشاط " فندر" بين مسلمى الهند ونشاط " زويمر " بين مسلمى مصر وغيرها من البلدان العربية . واستغلت قوى التبشير والصهيونية العالمية المجاعات والحروب الأهلية التى عصفت بالشعوب الإفريقية . واستغلوا الفراغ الذى أعقب سقوط الاتحاد

السوفييتى وخروج دول هذه الكتلة من الحكم الشيوعى ، فدخلوا على الفور بقضهم وقضيضهم وأموالهم وخبراتهم وآلياتهم ، لقطع الطريق على الإسلام . وكان من مخططاتهم أن صوروا للشعوب الإسلامية التى استقلت عن الاتحاد السوفييتى بعد سقوطه ، كدولة أذربيجان ، ودولة أوزبكستان (وتعنى أرض الأسياد) وقازاقستان ، وغيرها من دول المنطقة أن العرب المسلمين الذين جاءوا قديماً بالإسلام إلى بلادهم ، كانوا غازين ومستعمرين لبلادهم ، ولتعميق هذا المعنى ظهرت كتب بلغات هذه البلاد لتأكيد هذا المفهوم المغلوط ولتعميق العداوة بين مسلمى هذه الدول والعرب . بل لقد صنعوا تماثيل لبعض الشخصيات المحلية التى صوروهم كأبطال واجهوا الاستعمار الإسلامى لبلادهم ، ووضعوا هذه التماثيل فى الميادين العامة . هذا بالطبع إلى جانب إغراءات مادية يلوح بها الغرب لشعوب هذه المناطق الفقيرة .

وهم يستغلون بل يثيرون النعرات والتِّرات (العداوة والأحقاد) القديمة فى المنطقة المراد اختراقها كالفرعونية فى مصر ، والبربرية فى الجزائر والفينيقية فى لبنان والآشورية فى سوريا والبابلية فى العراق . ويستثمرون كذلك الاختلافات الطائفية والعرقية والدينية فى المجتمع الواحد . على سبيل المثال إثارة موضوع الاضطهاد المفتعل للأقلية المسيحية فى مصر ، ومحاولة إحراج مصر فى المجتمعات الدولية ، واستغلال

بعض العناصر القبطية المتطرفة التى هاجرت إلى أمريكا وأوروبا لإثارة الفتن والقلاقل ضد مصر ولكن الواقع واعترافات أقباط مصر أنفسهم بل ولون الحياة التى يحيونها تكذب هذا كله .

إنه لا يوجد قانون فى مصر يفرق فى المعاملة بين مصرى مسلم ومسيحى مصرى على الإطلاق .

***

الباب الثانى

الإسلام من المنظور الغربى

لقد تحولت النصرانية التى حددها المسيح عليه السلام بأنها ديانة أخروية لا تعدو فى تعاملها دخيلة النفس ولا تتدخل فى إدارة شئون الدنيا ، إلى قبضة فولاذية فى أيدى رجال الكنيسة الذين لم يتركوا شيئاً من شئون الحياة الدنيا ، دينيا أو مدنياً إلا سيطروا عليه .

لقد كان اهتمام الغرب بالإسلام أولا منصّباً على الاهتمام بالأرض كموقع جغرافى ، وكمصدر للثروات والخيرات ، إذ أنه على الرغم من الاهتمام بالعالم الإسلامى والعربى بصفة خاصة ، وبالعلوم والفلسفة والتراث العربى بشكل عام ، بل وبالسلوك والأنماط الحياتية للمسلمين ، فقد ظلت الصورة التى رسمها الغربيون للإسلام معتمة ومؤلمة ، وبعيدة عن الواقع ، وقبل أن نعرض بعض الأمثلة للتدليل على هذه الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين نقول : إن ذلك التشويش قد وقع إلى حد كبير بسبب نمطية العقلية الغربية وميلها إلى التصنيف والقولبة ، وذلك بناءً على مواقفها الثابتة والجامدة تجاه من تعتقدهم خصوماً أو أغياراً متربصين ، يصدق هذا على العقلية الغربية القديمة ، كما يصدق أيضاً على العقلية الغربية الحديثة

كما بيناه توا ؛ هذا برغم التقدم العلمى والتكنولوجى الخارق ، وامتلاك الغرب للقوة المادية الهائلة .

ولنقدم هنا بعض الأمثلة على ما قلناه من سوء فهم الغربيين للإسلام . فى روايته التى هى بعنوان **Ivanboe** وضع اسكوت **Scott** على لسان " وامبا " عبارات تهريج والتى يقارن فيها بين يهودى ومسلمين ، وصف اسكوت المسلمين بأنهم يعبدون محمداً [1] . وينبغى أن نلاحظ هنا أن اسكوت لم ينزع منزعاً روائياً خيالياً فى روايته ، فحسب ، وإنما استقصى معلوماته بالفعل من الموقف الأوروبى العام تجاه الإسلام والمسلمين ، وقد أشرنا من قبل إلى زعم الكاردينال جيكوب فيترى بأن مسجد عمر بن الخطاب كان به صورة لمحمد ﷺ . وفى أنشودة القدس لبطرس الناسك توجد أيضاً مثل هذه المزاعم الباطلة فقد وجه بطرس أنشودته إلى هؤلاء الذين حملوا صلبانهم على صدورهم لمحاربة المسلمين ، " لتحطيم صورهم أو تماثيلهم كما هى عباراتهم " .

وفى أنشودة أنطاكيا صور المسلمون على أنهم كانوا يحملون تمثال محمد معهم أثناء المعركة . وتوجد إشارة غريبة كذلك فى الأنشودة نفسها إلى صنم يدعى سلام كادس زعم كاتب الأنشودة أنه لمحمد ﷺ وأنه كان بالأندلس .

---

(1) Sweetman , Islam and Christian Theoligy , Part 2 . VOL . 1P . 63 .

" Idolo Mahumet in the land of Andalus , called ,

salam, cadis " (١)

وتعنى هذه العبارة الإله أو الصنم ويزعم تانكرد النورماندى الصليبى Tancred the Norman (١٠٧٢م) أنه دخل المسجد الأقصى مرة ورأى فيه صنماً ضخماً من الفضة على شكل محمد ، هذا الصنم كان ثقيلاً جداً بحيث يصعب على ستة رجال أشداء تحريكه من مكان إلى مكان آخر . وفى رومانس دى محمد Romans de Mahon (فى القرن الثالث عشر) زعم الكاتب أن كفن محمد كان معلقاً فى الهواء . وفى أنشودة أنطاكيا المشار إليها سابقاً أن قبر محمد ، وليس كفنه فقط كان معلقاً فى الهواء (٢) .

إنه للأسف على الرغم من خطأ هذه الأحكام وتعسفها فإنها قد استمرت تسيطر على العقلية الغربية بدرجات متفاوتة ، ولوقت طويل ونجحت فى أن تصبغ العقلية الغربية بصبغة أسطورية بالنسبة للمسلمين .

ومن خزانة الأدب الصليبى نورد شكوى هميرت الرومانى من أهل طائفة الدومينكان (١٢٥٤ - ١٢٦٣) فى كتاب له أعده للوعظ ذكر فيه أنه لا يوجد إلا عدد قليل من النصارى الذين يفهمون القليل عن محمد والمسلمين وأن فهمهم هذا لا يتعدى

---

(1)Ibid P . 64 .

(2) Darbishire Christian of Islam in the Middle Ages , the Moslem world Quarterly VOL . XXVIII also Sweetman , Ibid P . 64 .

حدود القول بأن المسلمين كفار ، وأنهم لا يؤمنون بالمسيح بل يعبدون محمدا كإله [١] .

وقد أشاع المرجفون فى أوروبا أن محمداً كان مصاباً بالصرع ، وأنه كان يعانى من هذا المرض طوال حياته ؛ ويرجع القول بهذه الأكذوبة ، التى لا تزال تتردد فى الكتابات الأوروبية الحديثة وربما المعاصرة ، إلى الرومانى دى ماحون The Romans de Mahon ، كذلك زعم مبعوث لويس التاسع واسمه أيفس البرتون فى القرن الثالث عشر ، وبعد أن تكلم مع أحد الإسماعيليين من فرق الشيعة ، أن بعض المسلمين يتبعون قوانين محمد وبعضهم يتبعون قوانين على (يقصد الشيعة) [٢].

وهذا خطأ جسيم منشؤه الجهل بالإسلام فليست توجد هناك قوانين خاصة بمحمد وقوانين خاصة بعلى ؛ والمثل الآخر الذى نقدمه من بطرس المحترم " حوالى ١٠٩٢- ١١٥٦م " الذى حاول إقناع أبيلارد بالرجوع إلى الإيمان الأعمى والكف عن البحث والتفكير قائلاً له : " إنك إذ لم تحصل على نعمة المسيح ، إنك إذا لم تهتد فأى تعاسة سوف تصيبنى أنا فى نفس الوقت ؟ من الذى يحبك كابن وحيد ، ومن سيغذيك بلبان التقوى ، ومن الذى يمكن أن يدفئك بالحب كما فعلت أنا عندما كنت أضحك فوق صدرى ؟ ومن الذى سوف يقوم بتربيتك مع أبناء المسيح ؟ من الذى سوف يلبسك الزى السماوى ؟

---

(١) نفس المصدر .

(2)Ibid P . 65 .

من ذا الذى سيوقظك بكل قوة من أجل الصراع الروحى والقتال جنباً إلى جنب ضد العدو المشترك " .

ثم يقول له أيضاً : " لأى هدف يا بنى تتحير ، وتنتقل من مدرسة لأخرى ؟ لأى هدف تبذل هذه المحاولات لتفهم وتدرس ؟ لماذا تبحث عن آلاف الكلمات وتبذل من أجلها الجهد المضنى . بينما قد أُعْطِيَتْ الحقيقة كلها لنا فى كلمة بسيطة " .

والعدو المشترك الذى يعنيه بطرس بالطبع هو الإسلام والمسلمون وأما قول بطرس بأن الحقيقة كلها قد أعطيت لهم فى كلمة بسيطة ربما قصد بها الإنجيل أو التجلى فإنه يعنى أن جميع الأديان لا تحتوى على أى حقيقة ، بل المسيحية فقط هى التى تمتلك الحقيقة كاملة . وهذه الفكرة تسيطر على الفكر الكنسى كله وسوف تظهر بجلاء بعد قرون فى كتاب للبابا يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان ، والكتاب بعنوان " روعة الحقيقة " كما سنرى فيما بعد . لقد كان بطرس ابيلارد " ١٠٧٩-١١٤٢م " أول رجل دين مسيحى يحاول الجمع بين الفلسفة والدين وبين الدين والعلم كما كان أول من نادى بأن الدراسة الموضوعية . لا التحيز والتحامل ، هو الذى يخدم الكنيسة .

لقد بدأت الشرارة الأولى للفكر الحر فى أوروبا من هذا التاريخ ولم تتوقف ، فقد انطلقت الدراسات الإسلامية الأقرب إلى الموضوعية والأكثر وعياً للمفاهيم الإسلامية فى الغرب من هذا التوقيت ، حيث أنشئت دور لتعلم اللغة العربية وللترجمة منها إلى اللغة اللاتينية ، وتخصص فريق من

الغربيين من اليهود واللاتينيين فى الترجمة ، وقد ترجم القرآن الكريم عدة مرات ، لأغراض كنسية بلا شك ، كما ترجمت بعض الكتب الإسلامية المهمة بدرجات تتراوح بين الخطأ والجهل ، وتعمد الإساءة ، ولقد كان لهذه الترجمات بلا شك أثرها فى تشكيل الرأى العام الأوروبى فيما بعد بالنسبة للإسلام (١) .

فقد عمل القديس بطرس المحترم مع فريق شكله لهذا الغرض ، على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية ، لغة الشعوب الأوروبية آنذاك (٢) .

وكتب هيرمن الدالماتى تفسيراً للقرآن تولى بطرس المحترم نقله إلى اللغة اللاتينية ، ويقال إن شخصاً يدعى محمداً قد قام بمراجعة الترجمة .

ومما نتج عن ترجمة القرآن الكريم الزعم بأن محمدا قد انتحل من كتب اليهود والنصارى وربما كان لهذا الزعم تاريخ سابق على هذا التاريخ ، ولكنه على أى حال قد ظهر وتطور فى أعقاب الترجمات الكنسية للقرآن .

ونتج عن ظهور الترجمات ، كذلك ما يمكن أن يسمى ببدائيات الجدل الدينى فى الغرب ، فلقد أثار بعض الغربيين موضوع الأصالة والتقليد فى القرآن الكريم حيث زعموا أن هناك قوانين وأحكاماً قد أخذها محمد من اليهود والنصارى

---

(1) See Abu Layla , The Quarterly , London , 1995

(2)Ibid PP . 71 F .

وأحكاماً أخرى تركها ، ورتبوا على ذلك القول بأنه إذا كان محمد نبياً حقاً ما أخذ شيئاً من كتبهم وترك شيئاً آخر ، ولما قام بهذه التفرقة بين نص وآخر ، ما دام أنه كان يعتقد بإلهية كتب اليهود والنصارى فى الجملة ، ويتساءل صاحب هذه الدعوى هل يعقل أن الله يقول الحقيقة فى موضع ثم يقول الباطل فى موضع آخر [1] ؟ وبالطبع فقد فنّد علماء المسلمين مثل هذه الدعاوى الباطلة وأثبتوا من دراساتهم لكتب اليهود والنصارى نفسها ، وبالأدلة العقلية الدامغة أن فيها كثيرا من التناقضات والاختلافات فى كثير من المسائل ، وبخاصة الاعتقادية والتاريخية ، وقد بينا فى أكثر من موضع فى هذا البحث أن محمدا ﷺ لم يأخذ عن اليهود أو النصارى شيئاً ، وأن هذه الكتب التى يدعون أنه أخذ منها لم تظهر فى اللغة العربية إلا بعد وفاته ﷺ بقرون ، وقد عالجنا هذا الموضوع بالتفصيل فى كتاب آخر لنا هو القرآن الكريم من المنظور الاستشراقى (تحت الطبع) وكتابنا القرآن والأناجيل (القاهرة الفلاح ١٩٩٧) .

وعلى الرغم من هذا كله لم يتغير الموقف الغربى تجاه الإسلام إلا قليلاً ، وربما فى لهجة الخطاب لا فى أصل الموضوع ، وفى هذه القرينة نقول : أما بالنسبة لمجال العلوم الحديثة فقدانطلق

---

(1)Ibid P . 80 .

الغرب يبحث ويفحص ويمعن فى استكشاف ذاته ، ويقلب فى بضاعته ويتعرف على عيوبه ونقائصه ، ويسرع ويحث الخطى بحثاً عن العلاج والإصلاح ، وقد قطع فى ذلك شوطاً بعيداً وآمادا مترامية ، وتقدم تقدماً كبيراً وذلك لأنه صارح نفسه ، وواجه سلبياته ، ولم يتوقف عند حد التبرير والتغرير أو الانكفاء على الذات .

لقد درس الغرب المسلمين وألمّ بفكرهم وبحضارتهم وتراثهم وعرف كذلك الكثير عن تاريخهم وواقعهم وكيفية التعامل معهم واختراق صفوفهم وعقولهم ، ومعرفة نوازعهم وميولهم . والأمر الآن إلينا نحن العرب والمسلمين أن نبقى فى مواقفنا ومواقعنا التواكلية والتبريرية والتنصلية والتحاملية أم ننطلق لنكون على مستوى الحوار المتكافىء مع الغرب ، وفى مستوى يمكننا من التعامل معه معاملة الند للند . والحوار ليس مجرد كلام وإنما هو تعبير عن المواقف والأعمال ، وعرض للأرصدة السلوكية والعملية والحضارية على الغير .

والدخول فى الحوار مع الغرب أو غير الغرب يتطلب الإعداد الكامل له ، والإعداد يتطلب بدوره أن يكون المحاور على علم واسع وخبرة عميقة بما يجرى فى العالم وبتاريخ الإنسانية وثقافتها وفوق ذلك كله لابد أن تتوفر لديه المواهب الطبيعية وأن يكون من أصحاب البديهة الحاضرة . ويعتبر الحوار فى أيامنا هذه هو أقوى وأسرع الآليات فى فهم الآخر ومحاولة اختراقه والعمل على تغيير موقفه تجاه قضية من القضايا ،

وبالحوار يمكن لنا أن نصل إلى إقناع الغرب بعدالة قضايانا وحسن نوايانا ، وإيضاح تحيزه ضدنا نحن المسلمين وهكذا .

وترك أمر الدعوة فى الخارج لغير الواعين فيما يجرى فى العالم وبمتطلبات الدعوة فى الغرب يعود بالفشل الذريع على الدعوة نفسها وعلى الأزهر كأكبر مؤسسة دينية فى العالم فبعض العاملين فى الدعوة بالخارج إن لم يكن كلهم لا خبرة لهم بالحوار أو بالدعوة بين غير المسلمين ولكنهم رضوا أن يشغلوا هذه المواقع لمصالح خاصة وليس للمصلحة العليا ، مصلحة الدعوة والأزهر ، ولو أسند فى هذا المجال إلى أحدهم العمل نفسه فى أحد المساجد فى بلادهم مثلاً لتأبى عليه واختلق لنفسه دونه المعاذير والمحاذير . ولكن ما دام العمل فى أوروبا فهنا يظهر الصراع والتسابق ولنأخذ مثلاً على قلة فقه وحنكة بعض الدعاة غير المتمرسين فى الخارج ، وطريقتهم المنفِّرة التى لا تليق بالدعوة ، ولا ترقى إلى مستوى رسالة الإسلام العالمية .

والمثال نأخذه من كاتب مقال " المسلمون فى أوروبا " لنرى إلى أى حد كيف يراقبنا الغربيون فقد جاء فى مجلة النيوزويك الأسبوعية أن أحد الخطباء المسلمين فى فرنسا كان يتكلم عن الخلافة الإسلامية وكأنها فى طريقها إلى الظهور والانتشار ، وكأن الجيوش الإسلامية تقف على حدود أوروبا انتظاراً لمداهمتها . ويحدثنا نفس الكاتب الصحفى عن إمام آخر يخطب فى مسجد مقابل لكنيسة القلب المقدس بمدينة باريس

وكان يتكلم عن الإسلام الزاحف على أوروبا ويقرأ على الناس من القرآن : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾[1] . يعلق الكاتب على خطبة هذا الإمام المتحمس بقوله : إن العقلية الفرنسية فى ظل الظروف التاريخية والحالية ، لا تستطيع فهم هذا الكلام ولا قبوله ، وهو لا يتفق مع منحاها العقائدى والفكرى العلمانى . وللحوار مع غير المسلمين طرق ومداخل ومنافذ لابد من معرفتها ، والتخطيط للحوار لا يقل خطراً عن التخطيط لمعركة حربية أو مشروع علمى أو تربوى قومى ضخم ، ولكن لابد أن يكون المتحاور قوياً ولديه ما يعرضه ويستطيع أن يفرضه بالحجة والإقناع . إن إعداد أو صناعة المحاور تتطلب منا وضع خطة عمل واقعية وشاملة وبذل الجهد المتواصل فى هذا السبيل ومن الحكمة أن نبدأ بتحديد معالم شخصية من يراد إعداده بصدق وموضوعية للتأكد من كفاءته واستعداداته فى هذا المجال ثم رعايته مادياً وأدبياً . وأولاً وأخيراً ينبغى تهيئة الجو المناسب والبيئة المناسبة لنمو وتطور محاورين أكفاء .

إن المعركة الدائرة الآن بين الشعوب هى معركة جدلية ، معركة الأمم فى وقتنا الحاضر قوامها الحوار ، لا الحديد والنار ، حتى إنه عندما تشن بعض الدول حرباً متعسفة ضد دولة أخرى فإنها تكون فى حاجة إلى الحوار لتبرير عدوانها ، وتغطية

---

(١) الروم : ٤ .

موقفها أمام شعوب العالم . والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن من أصول الدعوة الإسلامية .

لقد أصبح المسلمون الغربيون اليوم جزءاً من الواقع الأوروبى ، وشريحة من شرائح المجتمع الغربى لا يمكن تجاهلها . إن عدد المسلمين فى أوروبا ، وأمريكا فى تزايد مستمر ، وإن تميز المسلمين الغربيين فى زيهم وعوائدهم وتقاليدهم وتمسكهم الواضح بتعاليم دينهم ، وإقبالهم على إقامة المساجد ، وإنشاء المدارس والكليات والمتاجر الخاصة بهم ، وعقد المؤتمرات الإسلامية واستقدام العلماء من البلدان الإسلامية جعلهم يبدون كقوة ، هذه القوة قد أثارت حساسية المجتمع الغربى وتخوفه كما يبدو من حملات أجهزة الإعلام الغربية بل ومن بعض الدوائر السياسية التى تتناول المسألة بحساسية تتجاوز حجم الواقع الفعلى لهذه الجاليات وتأثيره ، إن أجهزة الإعلام الغربية تصور المسلمين وكأنهم قد دخلوا البلدان غزاة أو قراصنة ، وإن التخوف الشديد الذى تبديه أوروبا من التواجد الإسلامى على أرضها إنما سببه الانطوائية والانعزالية التى عاشت فيها أوروبا ردحاً طويلاً من الزمن ، إذ أن عهدها بالمجتمع المتعدد الجنسيات والديانات والثقافات يعتبر جد قريب ، كما أنها وإلى حد كبير لا تزال متأثرة بآثار الحروب الصليبية التى ينبغى أن تتجاوز فى التعامل مع المسلمين وذلك لأن أسباب التفاهم والتعاون فى عصرنا هذا أكثر وأعمق من آثار الحروب

الصليبية مهما كانت وطأتها بل إنه ينبغى أن نعرف أن للحروب نفسها ظروفها ودواعيها التى يمكن أن تعالج .

سبب آخر لتخوف أوروبا من الإسلام والمسلمين وهو يكمن فيما حدث فى بلادنا من إرهاب وتطرف له ظروفه وأسبابه المحلية والعالمية التى قد لا تمت إلى الدين بسبب أو بعلة واهية ومتهافتة والتى لا يمكن أن نبرىء ساحة الغرب من العمل على وجودها ومساندتها ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإننا لو أخذنا أوروبا وأمريكا بتاريخهما الطويل والأليم فى الحروب الأهلية والطائفية أو بما يحدث فى هذه البلاد من عنصرية واضطهاد للأجانب من بعض فئات المجتمع ومن استعمار للعالم الإسلامى ، وكذلك من تحيز واضح ضد مصالح المسلمين السياسية العليا لتوقفنا عن التعامل معهم بالمرة ولم نركن إلى الاطمئنان إليهم أبداً ، ولكننا ينبغى دائماً ألا نجعل العوارض ثوابت ، والهوامش أصولاً ، أو نبنى حياتنا على الخوف والتوجس ، ونبنى علاقتنا مع الآخرين على الشك والريبة وإلا لتعطلت مسيرة العالم وتوقف سير الحضارة الإنسانية .

ولذلك فإننا نأسف لما أورده السيد Arie Dost Lander فى تقريره المقدم إلى البرلمان الأوروبى من اعتبار المسلمين هم بالدرجة الأولى مصدر التطرف الدينى ، فإن مثل هذا التصريح الخطير فوق أنه يتجاهل الظروف العالمية لظهور الإرهاب ، وكذلك النزعات العنصرية الجديدة فى أوروبا فإنه يزيد بلا شك من حساسية الأوروبيين ضد المسلمين ، وفى حالة ما إذا

استمر الإعلام الغربى ، والمنظمات الغربية فى إذكاء العداء وإثارة الحساسيات ضد المواطنين المسلمين فإن الغرب سوف يتعرض على المدى القريب لصراعات وحروب أهلية تضر بحضارته وبمصالح شعوبه . إن الغرب لا يستطيع أن يستغنى عن المسلمين ، ولا أن يعيش بمعزل عنهم وعن العالم من حوله سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الاقتصادية والاجتماعية . ولقد صرح جاك أتارى وهو مستشار دولى للرئيس الفرنسى السابق فرانسوا ميتران فى مقال له نشرته صحيفة لوموند الفرنسية والذى تكلم فيه عن أهمية الهجرة بالنسبة لفرنسا وعن أهمية العنصر الإسلامى فى تقدم بلاده وإثرائها اقتصادياً وبشرياً . وفى هذا المقال هاجم أتارى التطرف اليمينى فى الغرب وقال : إنه مما لا شك فيه أن فرنسا بدون هجرة المسلمين إليها كانت ذاهبة إلى الشيخوخة وأن قدوم المهاجرين إلى فرنسا قد أنقذها من مشكلات كبيرة وأن فرنسا لا يمكن أن تستغنى عن بعدها الإسلامى بحال [١] .

إن الإسلام يفتح ذراعيه دائماً للسلام ويعتبر السلام هو الأصل ، أما الحرب فحالة طارئة يجب أن تعالج أسبابها ، وتمحى آثارها ، إنها أحياناً تكون كالخطيئة تصلحها التوبة والعمل الصالح . إن الأوروبيين أنفسهم يعترفون بأنهم فى حالة خوف

---

(١) انظر مجلة صوت أوروبا السنة الثانية العدد التاسع . شعبان ١٤١٨هـ - نوفمبر ١٩٩٧م.

من تزايد الوجود الإسلامى فى بلادهم ، ولكن ما ذنب المسلمين الذين لم يدخلوا أوروبا غزاة ، والذين كانت أوروبا نفسها فى حاجة إليهم ، وقد شاركوا بالفعل فى بناء النهضة الأوروبية الحديثة ، ولا يزالون يغذونها ويدعمونها .

إن المسلمين بصفة عامة لم يقفوا عند حد إدانة أوروبا ومطالبتها بالتعويض عما أحدثته الحروب الصليبية والزحف الاستعمارى المسلح على بلادهم واستعمار بلدان العالم الإسلامى كله قبل نهاية الربع الأول من القرن العشرين وما ترتب على ذلك من آثار سيئة ومدمرة يعانى منها المسلمون إلى اليوم فقد نقلت ثرواتهم ونقل الكثير من آثارهم وتراثهم النادر إلى مكتبات ومتاحف الغرب ، ومع ذلك فإنهم يتعاملون بسماحة ودون حساسيات تذكر مع الغربيين فى كل مجالات الحياة والأنشطة المختلفة .

ولنا أن نتساءل فى خاتمة هذا الشوط لماذا تتحد جميع المؤسسات السياسية والدينية والإعلامية فى الغرب على تصوير المسلمين بهذه الصورة المخيفة التى تجعلهم يبدون وكأنهم وحوش مفترسة مع أن هناك أقليات كثيرة فى أوروبا يمسك بعضها فى أيديهم بأزمة صنع القرار وترسيم السياسات الداخلية والخارجية لهذه البلاد ، فاليهود مثلا يستطيعون أن يقدموا للمحاكمة أى كاتب أو مفكر يتصورون أنه يشنع بهم أو يكشف مؤامراتهم كما فعلوا بجارودى فى فرنسا عندما نشر كتابه الأساطير الإسرائيلية وها هى إسرائيل تضرب بعشرات

القرارات التى أصدرتها الأمم المتحدة عرض الحائط ، وتحتل أراضى إسلامية بالقوة وتسفك دماء آلاف الفلسطينيين وتهدم بيوتهم على رؤوسهم وتشردبهم ، وها هى إسرائيل تنتهك سيادة سويسرا وهى من البلاد المؤيدة لها ، حيث ضبطت مجموعة تعمل لحساب الموساد وهى تزرع أجهزة تجسس فى مقر البعثة الإيرانية التابعة للأمم المتحدة بجنيف . هذا ولم تمض بضعة شهور على عملية الموساد الإسرائيلية الفاشلة فى عمان ، والتى تورطت فيها الحكومة الإسرائيلية ، وها هى إسرائيل تمنح حق مطاردة أعدائها وتصفيتهم بدنياً فى الداخل والخارج . ومع هذا كله لم تصف أجهزة الإعلام الغربية إسرائيل بأنها إرهابية أو اليهود بأنهم إرهابيون ، ولم تصنف إسرائيل فى أى قرار أو خطاب غربى ضمن الدول الراعية للإرهاب .

بل إنه لمن دواعى الحسرة على سقوط القرار السياسى الأمريكى والغربى ، وتحيزه الكامل والسافر أن تضع الدول الغربية منظمة حماس الفلسطينية صاحبة الحق والمطالب الشرعية على قائمة المنظمات الإرهابية التى يجب حلها وتصفيتها .

كل هذا يجرى فى الغرب وخارجه بمساندة الغرب ولكننا لا نسمع عن قرار إدانة أو مقاطعة أو تهديد بالحرب أو تصنيف ضمن قوى الإرهاب بالنسبة لهذه الدولة أو لأىٍ من أجنحتها زعانفها التى تعيش فى أوروبا .

لابد من الإنصاف عند اتخاذ القرار ولو على الأقل من قبيل مراعاة المصالح العامة ، ولابد من التزام العدل فى التعامل مع الغير وإلا لانقلبت الأمور بانقلاب الموازين واختل النظام باختلال الأحكام وعم الفساد فى الأرض .

***

الباب الثالث

الحروب الصليبية

الواقع والآثار وطرق العلاج

البداية الحقيقية للحروب الصليبية صنعتها أسبانيا ، وأسبانيا لم تكن بالأرض المقدسة ولم يكن فيها قدس أو بيت لحم حتى يدعى تحريرها من أيدى المسلمين ، ومع هذا فقد شابت رؤوس الولدان والغربان بما جرى للمسلمين واليهود فى أسبانيا النصرانية . وإن ما حدث على أيدى رجال القدس الجديدة ، أعنى الكنيسة ، يفوق الخيال ، ولقد استشهد آلاف المسلمين دون تمييز بين رجل وامرأة ، أو بين طفل وشيخ ، لقد سلبت أمتعتهم وحيواناتهم ، وحرقت زروعهم ، بل لقد أزيلت قرى بأكملها ، بناسها وغرسها ، وحيواناتها ومساجدها ، ومدارسها ومستشفياتها وملاجئها .

ولم يفلت من تلك المذابح علماء المسلمين وأئمة المساجد الذين أضاءوا أوروبا بعلومهم ومعارفهم ، جرت كل هذه الأعمال الوحشية فى أسبانيا وبالأخص فى منطقة جين Jaen التى وصف الهجوم العسكرى المسلح عليها بأنه طاعون ، لم يترك فى هذا البلد شبراً وطئته أقدام الجنود النصارى إلا حطمته

ونشرت فيه الرعب والترويع والخراب والدمار . ومن هذا التاريخ يجب أن يؤرخ للإرهاب المنظم . يحدثنا نورمان دانيال Norman Daniel أنه عندما احتل الفونسو منطقة كوريا الأسبانية حطم كل مساجدها فى الحال ، وعلى أثر إزالة المساجد بالكلية قال : " إن المدينة الآن نظفت ، أو طهرت من الإسلام الذى لوثها (The City Is cleared of the contamination[1] of Islam) هذا فى الوقت الذى كان فيه الفاتحون المسلمون لا يحرقون زرعًا ولا يجففون ضرعاً ، ولا يقتلون امرأة أو صبياً أو شيخاً ، ولا يهدمون دار عبادة ، بل لقد أقام المنصور بن أبى عامر حراسة مشددة على قبر القديس سانت بيجو Santiaio[٢] عندما دخل هذه المدينة الأسبانية بجيشه . لقد تحولت النصرانية !الأسبانية إلى بربرية همجية ضد المسلمين وقد 'عتبر سانكو Sancho أن ضياع المدن والقلاع الأسبانية على أيدى المسلمين إنما كان بسبب الخطايا الكثيرة التى ارتكبها آباؤهم (يعنى الأسبان) (Assidue) وفى تقديره أن الله قد سلط عليهم لذلك أناساً متوحشين بربريين Barbarian (يقصد المسلمين) وبعبارة المترجم .

---

(1) Norman Daniel the Arabs and Mediaeval Europe, (London , Longman group LTD 1979) P. 85

(2) Dozy Spanish Islam . P . 519

how by the infestation of this unbelieving people and their rabid perscution , Spain was almost wholly depopulated of chirstians, until God, looing down upon the affliction and oppression of his people, put down their (Arab) impious audacity .

وهذا المكان الذى كان يسكنه هؤلاء المسلمون الذين اعتبرهم سانكو كفرة ومتوحشين ، يسمى فى اللغة التشالدية Chaldean Longuage – البلدة Albelda [1] وهو اسم عربى .

يعتبر سانكو أن حربه ضد المسلمين كانت حرباً دينية ، وأنه خاض معركته الصليبية لتخليص البلاد من الكفار المتوحشين ، يعنى المسلمين . وتقدم لنا المصادر الإنجليزية تقريراً عما حدث عندما استولى الأسبان على ليشبونة فى عام ١١٤٧م ويضم هذا التقرير حواراً له مغزاه وقع بين قسيس وشيخ ، وبغض النظر عن تاريخية أو عدم تاريخية هذه المحاورة فإنها تكشف عن موقف نفسى وتاريخى وإيمانى بالدرجة الأولى ، هذا الموقف يعكس الغاية الحقيقية من التواجد الإسلامى فى الأندلس . حاول القسيس بادئ ذى بدء أن يقنع الشيخ المسلم بالدخول فى النصرانية ليزداد عدد أتباع كنيسة الرب كما هو تعبيره .

(1) Ibid, P . 86

فرد عليه الشيخ قائلا : « أيها الرجل إننى أعتقد أن هذه المدينة كانت فى يوم من الأيام مدينتك ، ولكنها الآن مدينتنا نحن ، وربما صارت لك مرة أخرى فى المستقبل ، ولكن إذا وقع هذا فسوف يقع بإرادة الله تعالى أيضاً ، وفى الوقت الذى يحدده هو سبحانه وتعالى . لقد أخذناها منكم بأمره عز وجل ، وعندما يريد سبحانه أن نتركها فسوف لا تكون لنا . حقاً إنه لا توجد هناك موانع أو أسوار تستعصى على إرادة الله أو تحول دون وقوع قضائه تعالى !! (١) .

إن كلام العالم المسلم مفعم بالحرارة والمرارة فى نفس الوقت وهو يعبر عن معنى قرآنى عميق الأثر فى النفس وبخاصة إذا استحضره الإنسان فى مثل هذا الموقف العصيب : ﴿ **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾(٢) .

إنه رجل مؤمن عميق الإيمان والثبات ، ورجل واقعى لم يكابر ضد الواقع التاريخى ولم ينكر على القسيس الأسبانى كذلك أنه كان صاحب الأرض وصاحب الحق قبله .

ويعلق نورمان دانيال على كلام الشيخ المسلم : " إن نصرانياً لا يمكن أن يقول مثل هذا الكلام فى ذلك الوقت لأنه كان مصادما

---

(1) Ibid, P . 87

(٢) الأعراف: ١٢٨ .

للروح الصليبية ، ومع هذا نجد من يزعم أن نصارى العرب كانوا مضطهدين وبخاصة فى مصر والسودان وإثيوبيا .

لقد كان الصليبيون يشيعون أن الموحدين كانوا يخططون لاجتياح أراضيهم ، بل لدخول فرنسا وإيطاليا وأوروبا كلها عنوة تحت إمرة المسلمين ، وذلك عندما تقدمت جيوش الموحدين نحو شمال أفريقيا . نفس الهواجس التى لا تزال تهيمن على الغرب فى وقتنا الحاضر بالنسبة للمسلمين . وهذه الهواجس تعمق الفجوة بين المسلمين والغربيين وتعرقل محاولات الاتصال بينهم والتواصل معهم .

وينقل لنا أحد المؤرخين الغربيين وصفا للآثار المدمرة التى نجمت عن دخول أنوسنت الثالث Innocent III - فى عام ١٢١٢م - الحرب ضد المسلمين والنهاية الأليمة لهذه الحرب الملعونة ، يقول الحاكم المذكور " بتأييد المسيح المخلص " وبفضل قوة ومساندة معظم ملوك النصارى ، ملوك أرجون ، نفارى ، وكستيلا ، ذبحناهم (أى المسلمين) ، حتى لقد أصبح الأعداء أحدوثة أو حكاية ، من دمائهم شربت سيوف أتباع المسيح وطعمت من لحوم الآلاف منهم ، والتى هى فوق الحصر ، ستون ألف كافر (يعنى مسلما) من الجنسين قد أرديناهم قتلى " .

" And by the grace of the Saviour , and with the most Christian Kings of Aragon and Navarre and Castille butchering them , the enemy turned tail ; of whom the swords of the followers of Christ

devoured endless thousands sixty thousand of both sexes of the gentiles they Killed " [1].

وهذا العنف الذى نلاحظه فى التاريخ الغربى يدفعنا إلى هذا التساؤل ماذا كان سيحدث للمسلمين أو للعالم لو لم ينشغل الغرب بالعلوم والاختراعات ، ولو لم يغرق فى وسائل الرفاهية والترف ويستحوذ على ثمانين فى المائة من ثروات العالم ؟ ؟ .

الأمر العجيب أن تراق الدماء باسم المسيح الذى يعتقدون أنه ضحى بدمه على الصليب فداء للبشرية ، أى بشرية ترى فدى المسيح بدمه إذن ، وأى آلام لعمرى أخذ وأى خطيئة كفر عنها ، وحطها عن كاهل البشر ؟ ؟ .

من استقرائنا للتاريخ والواقع الغربى المعاصر يبدو أن الأوروبيين قد اقتنعوا ولا يزالون رغم اختلاف الظروف والأحوال والتفكير والنظام الاجتماعى والسياسى ، بأنه لا حق للمسلمين فى أوروبا ، ومن حق أوروبا أن تنزل فى أى مكان فى العالم والعالم الإسلامى والعربى بخاصة ، وأن تحتل ما شاءت من الشعوب ، وتصادر ما شاءت من الأديان والحريات والثروات بل والحيوانات . إن نظرية الصراع بين الحضارات والخوف من الزحف الإسلامى واستشعار الخطر الأخضر كما أطلقوا عليه فى الغرب ، بسبب وجود تجمعات إسلامية تتزايد بمعدلات كبيرة فى أوروبا أو ظهور دويلات تحمل اسم

---

(1) Norman Daniel , the Arads , P . 88 .

الإسلام فى الغرب ، هذه كلها عملات قديمة أزيح عنها التراب لتستعمل من جديد ، وإن أصحاب هذه النظريات هم أشبه بالمتاجرين فى الأشياء المستعملة .

إن قول مؤرخ الكونجرس الأمريكى صموئيل هنتنجتون بأن المسلمين هم أعداء الغرب إنما يعمى عن العدو الحقيقى لأوروبا وللمسلمين ، أعنى الصهيونية العنصرية .

لقد قيل إن من أسباب قيام الحروب الصليبية الرغبة فى إذكاء الحياة فى الديانة المسيحية وتنبيه النصارى للخطر المحدق بهم ، فقد كانت النصرانية مريضة مرض الموت ولم يكن لها أدنى تأثير حتى على رجال الدين الذين يرتزقون بها ويعيشون على حسابها . وبينما كان البعض يحاول أن يعيد الحياة إلى النصرانية ويستحث النصارى داخل أوروبا على الرجوع إلى الدين كان بعضهم يحرض على الزحف نحو أرض فلسطين ويستنفر الشعوب الصليبية لاسترداد الأرض المقدسة ، مع أن أوروبا لم تكن موحدة ، ولم تكن تعيش فى سلام مع بعضها البعض ، أضف إلى ذلك أن النصرانية تعتبر ديانة بالمعنى الضيق للدين ، نعنى أنها لم يكن لها نظام سياسى أو هيئة مدنية أو أيديولوجية محددة يمكن أن تتوحد أوروبا حولها . ولذلك اختلفت أشكال الحكم فى أوروبا وإن ظلت المسيحية تسيطر على مشاعر شعوب هذه البلاد بشكل عام .

بعد جيل كامل من وقوع جرائم الحروب الصليبية ينبه وليام ماالميسبيرى على الخطر التاريخى الذى يزعم أنه يتهدد الممالك النصرانية فيقول ، " لقد ضاعت آسيا ،

وأفريقيا ، ولم يبق للنصرانية إلا أوروبا فقط . وحتى أوروبا لم تكن بمنأى عن الخطر ، فقد احتلت أسبانيا وجزر بلارك Balearic Islands " الواقعة فى شرق أسبانيا على البحر الأبيض المتوسط . وعاصمتها بالما Palma فى ميورقة .

وإن الدعاوى الفارغة التى كان بعض الصليبيين يروّجون لها من وجوب العمل من أجل استرداد الأراضى النصرانية وحماية النصارى العرب أو الشرقيين لم تجد صداها لدى هذه الشعوب التى كانت تحس دائماً بالانتماء الكامل لوطنها وبالأخوة المتينة للمسلمين الذين كانوا يعيشون معهم ، بل لقد كان النصارى العرب ينظرون دائماً إلى الكنيسة الغربية بعين الريبة والتوجس فقد كان لأتباع هذه الكنيسة لغتهم الخاصة وشعائرهم وعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم المختلفة ، ولذلك فلم تلبث أن ظهرت روح العداء السياسى والدينى بين نصارى الغرب والنصارى العرب كما هو الحال اليوم بين يهود الشرق ويهود الغرب فى إسرائيل ولا أدل على هذا الاختلاف الظاهر بين الفريقين أنه عندما تأسست بعض الممالك اللاتينية فى المنطقة العربية لم تكن هناك مساواة قط فى المعاملة بين أتباع الكنيسة البيزنطية الغربية وأتباع الكنائس الشرقية العربية ، لذلك انتشرت وبسرعة روح الكراهية للأجانب بينهم Xenophobia . يضاف إلى ذلك أن الاحتفال الذى أقيم بمناسبة عودة القدس إلى أيدى النصارى لم يكن له أى صدى جماهيرى

أو شعبى ، بل اقتصر على طبقة رجال الدين وعلى مجرد إصدار البيانات والمنشورات البابوية فحسب .

The attitude was not so varied as to occure only in liturgy and recruiting homiletie .

ومن المهم أن نعرف أيضاً أن الصليبيين الذين زحفوا على فلسطين لم تكن تجمعهم رابطة واحدة ، ولا هدف واحد ، بل كانوا هم أنفسهم فى نزاع مستمر مع بعضهم البعض [١] ومما لاحظناه من خلال قراءتنا فى الأدب الصليبى أن المتطوعين من نصارى الغرب بحجة تخليص الأرض المقدسة كانت جماهيرهم من قليلى الحظ من التهذيب الاجتماعى ، كما كانوا على درجة كبيرة من سوء الأخلاق . لقد كان بعضهم يأتى من الأماكن البعيدة لا يحمل معه إلا جرابا فيه بعض الزاد ، ولكنه محمل بالفساد أكثر من العتاد ، وكما يحدثنا مؤرخو الحروب الصليبية أن هؤلاء المحاربين باسم الصليب كانوا يعاملون زوجاتهم الجميلات معاملة القاذورات بعد أن تخلوا هم أنفسهم عن شرفهم .

" men Spurned Their honours and treated their beautiful wives as dirt [2]

ومما آذى المسلمين ونصارى العرب المتمسكين بالقيم أن هؤلاء المحاربين الذين قذف بهم الغرب إلى أرض فلسطين

---

(1) Ibid . p . 122 .

(2) Ibid . p . 123 .

لم يتورعوا عن ارتكاب جرائم الزنا وممارسة الشهوات والاستغراق فى الملذات علانية مع النساء والفتيات اللائى جئن سعياً وراء نفس الفكرة الحمقاء [1] .وكان من نتائج هذه الممارسات الجنسية الإباحية وجود عدد كبير من اللقطاء الذين أخذهم المسلمون وربوهم على الإسلام . وبهذا استنقذوهم من أيدى التشرد والضياع . لقد كانت البنت تغتصب ويعتدى عليها أمام أمها وأبيها كما كان يفعل الصرب مع مسلمى البوسنة والهرسك ، وقد انتشر كذلك اللواط بين هؤلاء المحاربين الغرباء ، حدث هذا فى الوقت الذى كانت أوروبا لا تزال تحافظ على بعض التقاليد الصالحة والقيم الخلقية الطيبة ، وما قلناه بالنسبة للفساد الخلقى والاجتماعى الذى اتسم به المتطرفون الصليبيون لا يعنى أن الغرب كان قد تخلص من قيمه وتخلى عن مُثله بالكلية أبداً ، كما أننا فى نفس الوقت لا نبرئ بعض المسلمين من ارتكاب بعض الأخطاء أو الانتهاكات التى ربما حتمتها الظروف أو فرضها الواقع بحكم الاحتكاك والنزاع الدائر بين الفريقين . وعلى أى حال فإن الدين لم يكن بالنسبة للحروب الصليبية إلا ستاراً لأطماع سياسية وتجارية واستعمارية توسعية فى أرض المسلمين [2] ، لقد كانت الحروب الصليبية كذلك هى المقدمة الطبيعية للاستعمار الغربى

---

(1) Ibid . p . 125 .

(2) J . W . Sweetman , Islam and Christian Theology , Lutterworth Press Ltd, 1977, Part 2, uo 1. I . P. 60 .

للمنطقة ، بل وللعالم الإسلامى كله تقريباً . والعجيب أن الصليبيين لم يعرفوا الإسلام معرفة جيدة ولم يهتموا بدراسته كذلك دراسة موضوعية على مدار سنوات الحروب الصليبية التى دامت قرابة أربعة قرون من الزمان لأنهم إنما جاءوا محاربين لا متعلمين أو مكتشفين ، ولقد قام الاستعمار الغربى الحديث فيما بعد بهذا الدور عن طريق الاستشراق والتنصير المنظم وأجنحته الكثيرة والمختلفة .

إن كل ما عرفه الصليبيون عن المسلمين لا يعدو أن يكون بعض المعلومات العلمية كقوة المحارب المسلم وشجاعته وعمق تدينه وفوق ذلك وقبله إخلاص القائد صلاح الدين وعدله وسماحته فى معاملة الأسرى الغربيين .

يقول المؤرخ النصرانى جيكوب فيترى Jacob Vitry الذى اهتم بوصف جغرافية الأرض المقدسة ، وبالحديث عن أى أنواع الجراد كان يأكلها يوحنا المعمدان ، يقول عن شخصية صلاح الدين الأيوبى " إنه كان من أكرم الناس ، ومن أرقهم قلباً ليس فقط بالنسبة لأبناء دينه ، بل لنا أيضاً نحن المسيحيين " . ولقد أوصى صلاح الدين عند موته بتوزيع ثروته على فقراء المسلمين واليهود والنصارى دون تفرقة . وقد وصف لنا بعض المؤرخين الغربيين الرخاء والأمن الذى كان يعيش فيه أهل فلسطين من مسلمين ونصارى جميعاً ودون تفرقة وكيف أن نصارى سوريا كانوا ينقلون أخبار الصليبيين إلى القيادة الإسلامية ، مما يدل على شيوع الأمن والسلام والمساواة والسماحة بين أهل المنطقة

مسلمين كانوا أو نصارى ، مما كان يبدو غريبا للصليبيين فى هذا الوقت بل فى وقتنا الحاضر أنه ليبدو كذلك . تعلم الصليبيون من المسلمين إلى جانب ما ذكرناه ، احترام المرأة وعزلها عن الرجال ، وبعض الآداب الاجتماعية الأخرى . ومما تجدر الإشارة إليه أنه فى هذه الفترة كتب الكاردينال كبير أساقفة عكا كتابا عن حياة محمد وصفه سويتمان بأنه نسيج من الخرافة Tissue of fables إذ يزعم أنه كان هناك قسيس اسمه سوسيو Sosio كان قد حرم من الكنيسة ، وطرد فقرر أن ينتقم من أبناء دينه فدفع بمحمد لذلك إلى ادعاء النبوة ، وأنه كان يوجد تمثال لمحمد بمسجد عمر بن الخطاب (١) وهذه وأمثالها من مولدات خيال مريض ، ولا يقبلها عقل مستقيم أو ذوق سليم .

وقبل أن نختم حديثنا عن الحروب الصليبية ، طبيعتها وآثارها نؤكد على الحقيقة التالية : لقد كان للمسلمين فضل التقريب بين البلدان الأوروبية المتنازعة واجتماعها على هدف واحد مشترك هو ضرب الإسلام وفل شوكة المسلمين ، وهذا التجمع الأوروبى الصليبى كان بلا شك للانتقام من المسلمين لا لتحرير بيت المقدس كما زعموا ، ومن الملاحظ لنا فى تاريخ العلاقة الغربية الإسلامية أن موقف الأوروبيين لم يتغير بالنسبة للإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا إلا بمقدار فسخ

---

(1) Ibid . PP . 58 F .

الشعرة ، حتى بعد أن انقسمت أوروبا إلى كاثوليكية وبروتستانتية ، بل وبعد انحسار دور الكنيسة فى أوروبا وسيطرة النظام العلمانى واللا دينى على أشكال الحكم فيها كما نوهنا به من قبل .

وهذا فى حد ذاته يفسر الازدواجية فى الحكم أو الكيل بمكيالين لدى الغرب إذا كان أحد طرفى القضية مسلما . وقد أوضحنا بالدليل فيما سبق أن أوروبا كانت فى نزاع وصراع عرقى وطائفى فيما بينها على نحو مضطرد غالباً . وأن أوروبا لم تعرف التسامح الدينى والاعتراف بقيمة الطرف الآخر ، أو الغير إلا بعد احتكاكها بالمسلمين وتعلمها منهم ، على سبيل المثال ، لا الحصر ففى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تناصر القاديانيين وتمدهم بالمساعدات المادية والمعنوية لخروجهم من الصف الإسلامى ، وتعينهم كذلك على نشر دعوى أن محمدا لم يكن خاتم الأنبياء وللترويج الدينى والسياسى لبقاء انجلترا فى الهند ، وربط بقائها بمصالح المسلمين ، أقول كانت بريطانيا لا تسمح قط لأى كاثوليكى أن يمارس شعائره الدينية أو يبنى كنيسة على أرضها .

وقد اضطهدت الكنيسة الإنجليزية أعضاء حركة أكسفورد بسبب موقفها المنادى بالتسامح مع الكاثوليك (١) . ومما يدل

---

(1) F. L. Cross The OXford Dictionary . of the Christian Church . London Oxford University Press New York Toronto . 1958 PP. 1001. FF .

بوضوح على الصراع النفسى بين أهل الطوائف المسيحية ما يقوله بُيد Bede من " أن رسولا سماويا قد هبط إلى الأرض وزار كل غرفة وكل سرير فى أحد دور الرهبنة فوجد جميع الرجال والنساء باستثناء واحد منهم فقط يغطون فى نوم عميق لا فائدة منه ، أو هم يظلون أيقاظا ولكن ليس من أجل عمل نافع " .

وأخبر القديس بونيفيس St . Boniface كبير أساقفة كانتربرى أنه لا يوجد إلا عدد قليل من المدن فى لومباردى ، والغال يعنى فرنسا خال من الزانيات والداعرات الإنجليزيات .

وهذا الكلام بالطبع يسىء إلى الكنيسة الإنجليزية ، ويبدو أن مثل هذا التقرير القاسى كان مرتبطا بذهاب الأوروبيين إلى الأرض المقدسة للزيارة .

وربما صدر هذا السلوك المشين عن بعض عامة الشعب الإنجليزى ، وللعامة وأهل الطبقات المنحلة مسلكهم القبيح فى أى مجتمع من المجتمعات (١) .

والأمر الذى يبدو واضحا فى تاريخ نمو وتطور العلاقة العربية الغربية أن إقبال المجتمع اللاتينى الأوروبى على تعلم اللغة العربية وعلى ترجمة كتب المسلمين أو انتحالها أحياناً ، كان على مستوى محدود وخاص جداً لا يعدو المثقفين المستنيرين ، وأن الكنيسة للأسف كانت تتحفظ كثيراً على نمو وتطوير علاقتها بالمسلمين ، بل لقد كانت تمنع أو تدين أى عمل

---

(1) Norman Daniel , The Arabs , P. 16 .

علمى يقوم به المثقفون ، وتسعى دائما إلى خلق جو من العداء للإسلام والمسلمين ، ولم تسمح الكنيسة قط بالتقارب بين المسلمين ونصارى الغرب بل كانت على العكس تسعى إلى وضع العراقيل وإثارة الشبهات حول الإسلام والمسلمين ، وذلك بغرض تعميق أسباب الخلاف بينهما . وفى الحقيقة أن هذا كان هو موقف الكنيسة من كل الأديان المخالفة للنصرانية تقريباً وليس للإسلام وحده ، إلا أن موقفها تجاه الإسلام قد اتسم بالحدة والعداوة أكثر من غيره ، ولقد اعتبرت الكنيسة الإسلام بصفة خاصة هو العدو التقليدى والقوى للممالك النصرانية ، وصورت المسلمين على أنهم أمة متوحشة متربصة بالأمم النصرانية . هذا هو الرأى العام للنصارى اللاتينيين تجاه الإسلام والمسلمين أثناء الحروب الصليبية وما بعدها بصورة عامة إلا أن هذه الصورة قد تعدلت أو شذبت بعض الشىء وذلك عندما بدأ الغرب يدرس الإسلام ويتعرف على المسلمين من قرب ، وبدأت الكنيسة نفسها تهتم بترجمة القرآن والعلوم والفلسفة الإسلامية إلى اللغة اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية المختلفة فيما بعد ولكنه ينبغى أن نستحضر فى أذهاننا أن تعرف رجال الدين المسيحى على الإسلام لم يكن إلا بغرض الدفاع عن المسيحية وحماية النصارى من التأثر بالإسلام فى أوروبا ومحاصرة المد الإسلامى فى أوروبا وعلى أى حال فقد بدأت أسماء وفلاسفة وعلماء المسلمين كابن سينا والفارابى

وابن رشد والغزالى وابن حزم ، والحسن بن الهثيم وابن النفيس وغيرهم تلمع فى سماء أوروبا وصارت كتب هؤلاء الأعلام المسلمين تدرس فى الجامعات والأكاديميات الأوروبية لعدة قرون .

***

الباب الرابع

الأدب النصرانى المعادى للإسلام

تمهيد :

خلال المرحلة الساخنة فى تاريخ الحروب والجدل الدينى بين النصارى والمسلمين فى أسبانيا حاول الشاعر الفرنسى النصرانى تشانون دى رولاند فى أنشودته أن يصور ديانة المسلمين لأبناء دينه بما يتوافق مع وجهة نظره كمسيحى متعصب ، لا ما عليه الإسلام بالفعل . زعم رولاند أن المسلمين يعبدون ثالوثا يتألف من ثلاثة أشخاص ، محمد مؤسس دينهم . وشخصان آخران ، كل منهما شيطان ، أبو اللين وترفاجنت Apollen & Tervagant . ينظر الشاعر الفرنسى إلى الإسلام وإلى المسلمين من خلال منظوره المسيحى الضيق والخاص جداً ، فما دام النصرانى يعبد ثالوثاً يتألف من الأب ، والابن والروح القدس ، ثلاثة أشخاص أو جواهر ، أو أشياء متميزة فلابد أن يكون للمسلمين كذلك ثالوثا مختلفا من حيث الأشخاص ، ولا بد أن يكون محمد ﷺ كعيسى المسيح عليه السلام يعبده المسلمون ، وهذه وأمثالها من الدعايات الرخيصة أو من دلائل الجهل وضيق الأفق ، وسوء فهم طبيعة الدين

المخالف ، فالتعصب الشديد جدا للدين والانغلاق عليه يدل على الأثر السيء الذى أحدثه هذا الدين أو ذاك فى المتدينين به .

أعطى النصارى للمسلمين أسماء بعيدة عن وصفهم الحقيقى وعن التعبير عن انتمائهم للإسلام ، فقد أطلقوا عليهم اسم سراسين Saracens ، وهذه الكلمة ليس لها أصل لغوى معروف ، والغالب أنها تشير إلى أصل عرقى ، وليس أصلاً دينياً ، كما أطلقوا عليهم مورس Moors باعتبار أنهم قدموا إلى أوروبا من مراكش . وفى معظم البلدان الأوروبية سمى المسلمون بالأتراك لأن خلافة المسلمين كانت تتزعمها تركيا آنذاك .

سمى المسلمون كذلك بالتتار Tatar باعتبار أن التتار قد حكموا روسيا فترة من الزمان حتى بعد أن فهمت أوروبا فى العصرالحديث أن الإسلام دين وليس جنساً أو جماعة عرقية فإنهم أطلقو على المسلمين خطأ عبارة "محمدين " Muhammadan وعلى دينهم محمدنيزم Muhammadanism مع أن المسلمين لا ينتسبون الى محمد انتساب المسيحيين الى المسيح ، وإنما هم ينتسبون الى الدين ، يعنى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ ، وبمرور الوقت ، وتزايد الاتصال بين المسلمين والمسيحيين ، وانتقال الثقافة والحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، وانتفاع الأوروبيين بها ظهرت حركات الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية ، وقامت من ثم مدارس وهيئات كنسية لتعريب العلوم الإسلامية ، وعلى رأسها القرآن ، وأيضاً لدراسة ، الإسلام ، والتخطيط للرد عليه بطريقة تبدو أكثر

عقلانية من مجرد الهجوم الجاهل عليه . وقد سبقت الإشارة في هذا الكتاب إلى مدرسة كلوني وبطرس المحترم ، وكيتون الذى قام بعمل أول ترجمة لاتينية كاملة للقرآن الكريم سنة ١١٤٣ . ومع نهاية القرن التاسع عشر بدأت الدراسات الغربية للإسلام في أوروبا وأمريكا تأخذ طابعا خاصا ، حيث أنشئت كراسى ومعاهد علمية خاصة بالدراسة العربية والإسلامية ، وتبع هذا ظهور مطبوعات وإصدارات ومجلات وموسوعات علمية ؛ كما تأسست جمعيات وأكاديميات متخصصة فى دراسة التراث الأدبى والعلمى للمسلمين والعرب . وإلى جيكوب ريكى Jucob Reike يرجع فضل تعريف الغرب بأهمية فهم الإسلام كدين ، ودراسته من مصادره بعين الإنصاف ، فقد أعلم جيكوب عام ١٧٤٧ "أن هناك أشياء كثيرة عجيبة فى تاريخ الشرق ، والتى لا يمكن فهمها بالعقل الإنسانى المجرد . رجل فقير ومكروه ، كمحمد ﷺ قد أحرز بفضل تقواه وفضائله المتعددة مثل هذه القوة التى جعلته مقدساً ، وذلك لدى قطاع عريض من سكان المعمورة أليس هذا رائعا ؟ ! . وهذا الشخص نفسه (يعنى محمداً) قد روض أمة متوحشة وشموسا دون اللجوء الى استعمال القوة ، فقد هذبهم ورباهم ، عن طريق مدهم بنماذج خلقية راقية .

لقد أسس (محمد) ديانة استطاعت أن تكتسح المسيحية من الشرق وكأنها أزالتها بمكنسة من على الخريطة ، ومن البدائيات الصغيرة والكسر المتناثرة بنى (محمد ﷺ)

امبراطوريه عظيمه استطاعت فى نصف قرن من الزمان أن تضم بلادا أكثر عددا مما ضمته الامبراطورية الرومانية فى ثلاثة قرون بأكملها . كما هزم (محمد) امبراطوريتين مزدهرتين هما الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية ، فقد أزعج وزلزل الأولى ، وأزال الأخيرة تماماً من الوجود . إن هذا كله لم يحدث دون إرادة إلهية عليا وينبغى أن نعى هذا الدرس من داخلنا ، وأن نفسح له الطريق ليصل إلى أرواحنا ، ويملؤها بالحب والتقدير لديانتنا وهو يزودنا فى نفس الوقت بشعور من الخوف والألم ... وبالاختصار فإن أى إنسان يريد أن يعرف العقائد المختلفة لأى دين من أديان الأمم الأخرى فيما يختص بالله وبالقضايا الإلهية وتاريخ الأديان ، أو العادات والقوانين والمبادىء التى تتبناها القبائل أو الدول أو الحكومات بأشكالها المختلفة ، وأى إنسان علاوة على ذلك يستحوذ ويستولى على عقله تاريخ العلوم الطبيعية ، والأمراض ومداواتها ، أو الرغبة فى ملاحظة شكل الأرض وذلك من خلال تسلسل الحوادث الزمنية ، وقيام وسقوط المدن ، سوف يجد فى دراسة تاريخ الأمة المحمدية الكفاية والغناء الذى يملأ وقته ويشبع رغبته .

وأى إنسان يستطيع أن يدرك قيمة التاريخ الأدبى سوف يتعجب حقاً عندما يعرف كم من الرجال فى الشرق قد طافوا بكل دروب المعرفة وأحاطوا بها . هذا فى الوقت الذى بدأ فيه عالمنا الأوروبى وكأنه قد لف بظلام ليل دامس من الجهل والبربرية " وسوف يدرك هذا الدارس أيضاً مع شعور غامر

بالسعادة قيمة ما قدمه كل واحد من هؤلاء الشرقيين لتطوير الثقافة الإنسانية والدفع بها . إن الذى يقف على مثل هذه الأشياء سوف يكون لديه معرفة شاملة وجديرة بالتقدير لأنشطة العقل الإنسانى وللعوامل الأكثر قبولاً فى إذكاء الروح [١].

بهذه الكلمات وضع جيكوب ريك مبدأ دراسة الإسلام من مصادره الإسلامية وذلك فى عام ١٧٤٧م . وكما قرر جوهان فاك Johann Fuck فإن الدراسات الإسلامية قد بلغت مرحلة النضج على يد ريك [٢]. حتى أنه يمكننا أن نقول إنه من هذا التاريخ يبدأ عصر التنوير فى أوروبا ، وقد مهد عصر التنوير بصورة عامة الطريق لظهور دائرة أوسع للاهتمام غير المنحاز بدراسة تاريخ وثقافة الشعوب الإسلامية .

كان الإسلام بالنسبة للشعوب الأوروبية فى العصور الوسطى عبارة عن هرطقة أو بدعة ، وأن محمدا ، الذى جاء بدين وصفه بالحنيفية السمحة ، وهو دين إبراهيم عليه السلام ، قد صور من قبل النصارى على أنه كذاب ومزيف ، ومتأثر بآراء وأفكار هراطقة اليهود والنصارى كما أشرنا إليه من قبل . وهذا رأى الأوروبيين بصفة عامة فى الإسلام وليس يخرج على هذا القول إلا قلة نادرة من العلماء الغربيين الذين

---

(١) المصدر السابق . P5f

(2) GErhard Endren An Introduction to IslamP . 6 .

حاولوا أن يكونوا أكثر معقولية فى تناول الإسلام فى كتاباتهم . وقد صور جيكوب ريك الأثر الذى أحدثته الفتوحات الإسلامية فى نفوس الأوروبيين وهو " الخوف والألم " إلى أن مثل هذا الشعور تجاه الإسلام لم يمنع مثل هذا الكاتب من أن يكون موضوعياً Obuective فى نظرته وتقويمه للإسلام ونبيه ﷺ .

غير أن الموقف الغربى من الإسلام ظل هو هو لم يتغير حتى هذه الأيام فقد عكف كتاب الغرب على تصوير الإسلام بأنه مستمد من اليهودية والنصرانية وليس أصيلاً ، وأن محمدا كان شخصا ماكرا عمل من أجل أهداف سياسية . كما صوروا القرآن على أنه شىء غريب خارج عن المألوف ، وأنه خليط من أجزاء متفرقة مأخوذة من التراث اليهودى والنصرانى . وسوف يطالع القارىء أمثلة كثيرة من هذه المزاعم والتى جمعناها من مصادر عدة كتبت فى أزمنة متفاوتة ، وذلك حتى يتبين الخيط العدائى للإسلام ، والذى لم ينقطع إلى الآن .

الدراسات المبكرة للإسلام

فى قرينة الحروب الدينية

أشرنا فيما سبق إلى القديس بطرس المحترم ومدرسة كلونى وقلنا إن روبرت كيتون قد قام بعمل أول ترجمة للقرآن من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية عام ١١٤٣م .

وقد أمر بطرس المحترم أيضاً بترجمة بعض الكتب العربية فى الجدل الدينى والتى ألفها النصارى الأسبان فى الدفاع عن المسيحية والهجوم على الإسلام ، والتى كانت فى تناول أيدى الراغبين بمدينة توليدو Toledo ، وقد أرسل بطرس ترجمات هذه الكتب إلى برنارد كليرفوكس Bernard Cleirvaux وذلك بغرض استخدامها فى مواجهة " فرقة السرسن الشريرة ، يعنى المسلمين The wicked sect of the Saracens . وذلك بقوة الكلمة أو النص ومنطلق العقل (1) .

وقد اقتصت فرقة الدومينيكان والفرنسيسكان هذا الأثر منذ القرن الثالث عشر الميلادى ودعا ريموند من مدينة لول Rymond of Lull ، إلى وجوب تعليم المنصرين قواعد اللغة العربية وتدريبهم عليها بصفة مستمرة وذلك حتى يتمكنوا منها . وقد كان ريموند متحمساً لتنصير المسلمين أيما حماس ، حتى أنه قتل فى تونس ربما بسبب حماسته المتهورة ١٣١٦م .

---

(1) G . Endress An Introdution t Islam P . 7 .

لم تضع دعوة ريموند أدراج الرياح بل لقد طبقت وأثمرت بالفعل ، إذ ألف فلورنتاين ريكولدو دا مونت كروس Florentine Ricoldo Du Monte Croce ، الذى درس اللغة العربية والدين الإسلامى ببغداد عام ١٢٩٠ كتابه Propugnaculum ، وقد صحح هذا الكتاب ، والذى تميز بطابعه الجدلى أيضاً ، كثيراً من الأخطاء السابقة حول الإسلام والمسلمين ، ومما يدل على أهمية هذا الكتاب الرائد فى مجاله بالنسبة للنصارى ما قام به مارتن لوثر بترجمته إلى اللغة اللاتينية سنة ١٥٤٢م .

إلا أن المصادر الغربية التى كانت تتحدث عن الإسلام كانت لا تزال حتى هذه الفترة ضئيلة كما لاحظ أندرسن ، كذلك ظلت ترجمة كيتون للقرآن هى المصدر والأساس الذى بنيت عليه واستمدت منه جميع الترجمات الأوروبية اللاحقة وحتى القرن السابع عشر واستمر ذلك حتى عدلت هذه الترجمة فى عام ١٦٩٨م على يد الإيطالى لودوفيكو مراكش Ludovico Marracci . فتح العثمانيون منطقة البلقان وآسيا الصغرى فى القرن الخامس عشر . وفى عام ١٤٥٣ سقطت القسطنطينية فى أيدى المسلمين الأتراك وكان لهذا أثره أيضاً على العلاقات النصرانية الإسلامية ، فلقد ظهر أدب معاد للإسلام وحتى هذا التاريخ كانت المعلومات التى قدمتها أعمال بطرس المحترم تمثل الشريان التاجى للمعرفة الغربية بالإسلام وقد مثلت هذه الكتابات فى نفس الوقت مصدراً للجدلية

الغربية ضد هذا الدين ، واستمرت نظرة الغربيين العدائية للمسلمين الأتراك ، الذين استولوا على القسطنطينية إلى آماد بعيدة مصورين إياهم أنهم لم يتركوا وراءهم شيئاً مقدساً أو طاهراً ، يعنى فى الأراضى التى استولوا عليها ، هذا ما قاله إينيا سولفيو بيكولوميني Enea Silvio Piccolomini والذى صار البابا بيوس الثانى Pope Pius فى خطابه إلى الكاردينال نيوكولاس Crodinal Nicholas of cusa تحت تأثير هذا الحدث التاريخى الكبير .

وقد نشر ولكان Wolkan خطابا مهماً دعا فيه [١] سيلفيو إلى توحيد الجهود المسيحية لشن هجوم مضاد ضد المسلمين .

وجاء رد الكاردينال على هذا المطلب عقلانياً ومتسامحاً ، وهو رد فى الحقيقة يستوجب الاحترام ، يقول متخليا – وربما لأول مرة – عن اللهجة الجدلية الهجومية السائدة فى الخطاب المسيحى آنذاك : " أما بالنسبة إلى كتاب محمد (يقصد القرآن) فإنه من وجهة نظر إنجيل المسيح ، يضم بعض المعلومات التى من خلالها يمكن أن تتأكد صحة الإنجيل ، هذا إذا كان الإنجيل فى حاجة إلى شهادة أخرى من خارجه تعزز صحته ."وذهب الكاردينال نيوكولس إلى أن كل الديانات لديها

---

(١) فيينا ١٩١٨ ج ن – ١ Vol . III , 1, Vienna 1918 P.207 .

قسط من الحقيقة المطلقة للدين الواحد " [1].

أشرنا فيما سبق إلى أن أوروبا قد ارتبطت تجاريا بالمنطقة العربية وذلك عن طريق تجارتها مع الهند إذ كانت تمر عبر المنطقة العربية فى طريقها إلى الهند والشرق الأقصى .

وبالرغم من أن هذه الطرق التى كانت تستخدمها الدول الأوروبية لأغراض تجارية كانت دائماً محفوفة بالمخاطر والصعوبات Precorious ، فإنها قد فقدت كثيراً من أهميتها ابتداء من القرن الثالث عشر ، وذلك بعد اكتشاف طرق أخرى بديلة عنها وذلك عبر روسيا ووسط آسيا ، وكذلك اكتشاف أمريكا والطريق البحرى المؤدى إلى الهند قد شكلا خطراً كلياً تقريباً على الرحلات التجارية الأوروبية عبر الشرق الإسلامى ، بالرغم من هذا كله فإن الصلات الأوروبية العربية الإسلامية لم تتوقف إذ لم يمض وقت طويل حتى وجدت أوروبا نفسها مضطرة إلى إنشاء علاقات قوية مع العالم الإسلامى فى ظل حكم سليم الأول (١٥١٢- ١٥٢٠) وخليفته سليمان حيث برزت دولة الخلافة العثمانية كقوة جديدة فى الشرق الأدنى ، فقد هددوا دول البلقان فى عام ١٥٢٩ ، كما وقف الأتراك المسلمين على أبواب فيينا . وفى نفس السنة أرسل تشارلز

---

(1) Cribratio Alkorani , prologue n . 10 , 1-3, ed . h . Hagemann, Nicolat de cusa Opera Omnia , Vol . VIII, Humburgi , 1985 , P. 11 . Quoled in Gerhard Endress , an Introduction to Islam , translated by carole Hillendrand , (Edinbrugh the universtiy Press . 1988) P.7.

الخامس بعثة دبلوماسية لإيران يطلب مساعدتها على أمل أن يدخل مع الشاه الصفدى فى حلف ضد الدولة العثمانية . وفى نفس الوقت دخل منافسه فرايكوسدن الأول حاكم فرنسا فى مفاوضات ناجحة مع الأتراك ، وقد حملت هذه المفاوضات نتائج سياسية ونتائج أخرى ربما كانت أطول مدى وأشد أثرا من غيرها .

فى عام ١٥٤٣ أرسل الملك بعثة إلى الباب العالى بالأستانة على رأسها العالم جيولوم بوستل Guillaume Postel . وقد اشترى هذا العالم الغربى بعض المخطوطات العربية وأحضرها معه بالإضافة إلى كتاب فى قواعد اللغة العربية ، كما نشر كتابا فى وصف جمهورية الأتراك "The Republic ofthe Turks ! " ثم جاء تلميذه يوسف إسكاليجر Joseph Scaliger (١٥٤٠-١٦٠٩) فكتب جدولا زمنياً للأحداث التاريخية بحسب المصادر المتاحة فى هذا الوقت ، بما فيها الأعمال الاستشراقية ، وقد تضمن هذا الجدول أيضاً التقويم الإسلامى . أورد إسكاليجر هذه المعلومات فى كتابه الضخم De emendatione temporum الذى نشره فى عام ١٥٨٣ .

وفى هذه القرينة ينبغى ألاَّ نغفل الإشارة إلى كتاب النحو العربى الذى أصدره بوستلوس . إما فى عام ١٥٣٨ أو ١٥٣٩ ، وإن كان هذا الكتاب يعد فقيراً فى قيمته من وجهة نظر بروخمان وشرودر بالإضافة إلى هذا العمل الرائد فإن المخطوطات التى حملها بوستال معه قد وصلت إلى مكتبة أمير

البلاط الملكى إن هيد يلبرج وقد أثرت هذه المخطوطات بالفعل الدراسات الإسلامية بألمانيا وهولندا . وتلقفت هولندا هذه المخطوطات وسارعت فى المضى نحو تأسيس دراسات إسلامية وعربية أكثر عمقاً ، وأكثر تقدماً من البلدان الأوروبية الأخرى(١).

وقد ساهم علماء هولنديون أعلام فى هذه النهضة العلمية الجديدة فى هولندا مثل توماث إربينياس (1624 -1584) Evan Erpe ، الذى قام بترجمة ودراسة بعض أمهات الكتب العربية كتاريخ الطبرى وغيره . وأنشئ من ثم كرسى للدراسات العربية فى جامعة ليدن ليشغله إربنياس ثم تلميذه جاكوباس جولياس (١٥٩٦- ١٦٦٧) فيما بعد (٢).

ألف جولياس قاموساً عربياً لاتينياً سنة ١٦٥٣ استمر قرابة المائتى عام المرجع الوحيد المعتمد فى دراسة اللغة العربية . وفى حوالى عام ١٦٠٩ مثل تلامذة جولياس بلادهم لدى البلاط العثمانى . وقد أهدوا عند عودتهم حوالى الألف مخطوط لمكتبة جامعة ليدن . وبهذا برزت جامعة ليدن من بين الجامعات الأوروبية فى مجال الدراسات العربية وسبقت إلى حيازة أكبر عدد من المخطوطات العربية المهمة ، وسبقت فى هذا المضمار

---

(1)Enderss An I ntroduction to Islam , PP 8- 9 .

(٢) انظر ى . بروخمان و ف . شرودر الدراسات العربية فى هولندا - إبريل ١٩٧٥ ص٩ .

بكثير مكتبتى الأسكوريال والفاتيكان ، واللتين لم تظهرا فى هذا المجال إلا فى القرن الثامن عشر . وحتى المكتبة الوطنية فى باريس لم يكن لها شأن يذكر إلا فى حدود القرن التاسع عشر . هذا ولم يصل مستوى هذه المكتبة إلى ما هى عليه اليوم إلا بعد أن توسعت فرنسا فى عدد أعضاء بعثاتها الدبلوماسية وكذلك فى عدد العاملين رسمياً فى حكومة الاستعمار ، وكذلك العلماء والباحثين والرحالة . وأما بالنسبة للندن وبرلين فقد بدأتا فى جمع المخطوطات العربية مؤخراً بالمقارنة إلى هولندا إذ أنهما بدأتا هذا العمل خلال القرن العشرين فقط .

ولأهمية هولندا فى العلاقات العلمية والتاريخية مع المسلمين والعرب نلقى هنا بعض الضوء على دور هذا البلد العريق فى الدراسات الإسلامية والعربية .

عرفت مطبعة ليدن الحروف العربية عام ١٥٩٥ تقريباً ، وصنف رافلنخيوس معجماً عربياً ، نشر بعد وفاته . وسرعان ما ظهر معجم خوليوس بعده ليأخذ مكانه على خريطة الأعمال الأوروبية حول الإسلام .

وكان أول من عين بتدريس اللغة العربية فى هولندا هو اليهودى المتنصر فرديناندوس وهو ينحدر من أصل بولندى وكان تعيينه فى السادس من نوفمبر ١٥٩٩م ولمدة ثلاث سنوات فقط .

وكان أول أستاذ لكرسى الدراسات العربية بلندن هو سكاليخر سنة ١٥٩٣ علما بأن كرسى اللغة العربية لم ينشأ فى

أكسفورد إلا فى عام ١٦٣٠ وفى كمبردج فى عام ١٦٣٢ .

وقد أثبت سكاليخر جدارة فى مجال الدراسات العربية جعلته بحق جديراً بلقب " أمير المستعربين " وهذا اللقب أطلقه عليه المستعرب الهولندى الشاب توماس فان أربينوس وذلك فى المقدمة التى صدر بها طبعته لمجموعة مائتى مثل عربى تركها سكاليخر لمكتبة ليدن .

ولا يقل عن هذا أهمية أن نذكر أن الأستاذ سكاليخر ويسمى جوييلموس بوستلوس كان يلقب أيضاً بـ " مفسر الرياضيات والآداب الأجنبية " .

وقد ألف سكاليخر كتابيه " إصلاح التقويم ، والنجوم الذى ذيله بملحق حول أسماء النجوم فى اللغة العربية .

وقد أتم أربنيوس دراساته بليدن فى شهر يولية ١٦٠٨ ثم رحل إلى بريطانيا والتقى بتوماس بدويل ، وهو منشىء الدراسات العربية هناك ، ويقال إن الأخير كان قد بعث إلى أربنيوس أثناء وجوده فى باريس بثلاث سور من القرآن مع تفسير لها بقلمه ، ومعنى هذا أن أربنيوس كان يجيد العربية ، وإن كان بعض الباحثين يرى أنه درس العربية بجدية فى فرنسا على يد مسيحى مصرى ، أسماه هو نفسه ، يوسف ابن أبى ذقن ، الذى يقال إنه كتب فى التاريخ القبطى أثناء تجواله فى أوروبا ، والواضح أن يوسف هذا قد علّم أربنيوس اللهجة العامية المصرية أكثر من اللغة العربية الفصحى .

وفى عام ١٦١٢ عين أربنيوس أستاذا لكرسى اللغة العربية بليدن . وعلى قائمة أساتذة اللغة العربية من الهولنديين يأتى بان تونس وكان يعمل مشرفا على خان الموسيقى بأمستردام ، ويقال إنه قد تعلم فى هذا الخان اللغة العربية حيث كان يلتقطها من نزلائه المراكشيين إلا أنه من الثابت أنه قد سجل اسمه ضمن طلاب اللغة العربية المسلمين عام ١٥٩٣ وأنه تعلم بعض مبادئ العربية على فرانسيسكوس رافلنخيوس ، كما تبين من طلبه المقدم إلى جامعة ليدن [١]. وقد رأى رافلنخيوس أن دراسة العربية تعد جوهرية بالنسبة لعلم الرياضيات ، وذلك ليس لأن العرب كانوا قد احتفظوا بمتون يمكن أن تملأ الثغرات فى معرفتنا بكتب الإغريق فى الرياضيات فحسب ، كما ساق أربنيوس فى حججه التى أدلى بها فى محاضرته الافتتاحية سنة ١٦١٣ ، بل لأن العرب قد أسهموا إسهاماً أصيلاً فى هذا العلم .

وقد أشرنا من قبل إلى المعجم العربى اللاتينى الذى نشره خوليوس عام ١٦٥٤ وظل العمدة فى بابه على مدى القرن الثامن عشر وشطرا من القرن التاسع عشر . وقد جمع خوليوس طائفة كبيرة من المخطوطات العربية كما قدم ترجمة لاتينية لمقالة لابن الهيثم فى استخراج ارتفاع القطب .

---

(١) المصدر السابق ص ٧-١١ .

وبالإضافة إلى أن اللغة العربية كانت هى الأداة الموصلة إلى الحكمة والعلوم الإسلامية فإن الهولنديين قد أدركوا أنها ضرورية أيضاً لتفهم اللغات الشرقية الأخرى ، وفى ترجمة الأسفار المقدسة من العبرية إلى اللاتينية إذ لكى يفهم نص الكتاب المقدس فإنه لابد من التمكن من اللغة العربية ، وذلك كما جاء فى افتتاحية محاضرة أربنيوس . وينبغى أن نؤكد على نقطة مهمة وهى أن القول بضرورة الاستعانة باللغة العربية على فهم اللغات الشرقية الأخرى وعلى الفهم الأعمق للكتاب المقدس قد سبق أربنيوس بوقت طويل إذ قد نادى به كليناردوس ١٥٤٢م وكان ده ديو مقتنعاً تماماً بأن الصلة بين هذه اللغات الشرقية قد بلغت من القوة ما يحملنا على القول بأنها تعتبر بنات لأم واحدة ، وعضوات فى أسرة واحدة " . وقد سبق علماء العرب فى تقرير هذه الحقيقة وتوصل إليها الغرب عن طريق الدراسات اللغوية المقارنة فيما بعد .

أما عن الصلة بين التبشير وبين اهتمام هولندا باللغة العربية ، فإنها لم تكن واضحة حتى الآن بنفس الدرجة إذ أننا لا نجد ما يشجعنا على دعوى أن هولندا قد اهتمت باللغة العربية لغرض تبشيرى فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخ اتصالها بالإسلام . ومن الجدير بالذكر أن عالمى العربية الهولنديين أربنيوس وخوليوس لم يكونا ميالين إلى تفهم الإسلام كحقيقة دينية ، أو كمنهج إلهى ، وإن كان أربنيوس قد أظهر ميلاً على نحو ما للإسلام إذ أنه لم يخف إعجابه وتأثره

بجمال الأسلوب القرآنى ، وقد أعجبه أيضاً فى الإسلام كثرة علماء الكلام المسلمين إذ أن وجودهم هذا فيه دلالة على حرية التفكير فى الإسلام ، هذا بالرغم من أن أغلبيتهم ينكرون ألوهية المسيح وصلبه [1]. وفى الحقيقة أن كل علماء المسلمين ينكرون ألوهية المسيح وصلبه بلا استثناء لأن ذلك من صلب عقيدتهم الدينية .

ابتداء من هذا التاريخ سوف نلاحظ طرف الخيط التنصيرى يظهر ضمن نسيج الاهتمام الغربى بدراسة اللغة العربية وفى هولندا بالذات فقد أبرز أربنيوس فى ختام محاضرته المشار إليها آنفا ، إلى الحافز التبشيرى لدراسة اللغة العربية يقول : " فلنعد الآن إلى هذه اللغة ، لأن التمكن منها مفيد للمسيحيين ، بل هو ضرورى ليرد إلى المسيحية جملة كبيرة من الشعوب العظيمة .. " ثم ينادى نفس الكاتب إلى قرار تعيين أساتذة لغة عربية فى الجامعات الغربية الكبرى . من هذه الفقرة تظهر إذاً الدعوة إلى ربط التنصير بتعلم اللغة العربية ، والربط بين تعلم اللغة العربية والتنصير يظهر أكثر وأكثر وذلك كلما أسرعت عجلة التنصير فى الدوران فقد رأى أربنيوس أن تعلم العربية من أجل تنصير المسلمين هو الأهم فى تعليل الاهتمام الغربى ، والهولندى بصفة خاصة بهذه اللغة ، تجلى ذلك فى طبعته للترجمات العربية للعهد الجديد عام ١٦١٦ والأسفار الخمسة

---

(١) المصدر السابق ص١٣ – ١٥ .

المنسوبة لموسى عليه السلام فى عام ١٦٢٢ . بل ربما طبعت هذه الكتب أولاً وقبل كل شيء بغرض نشر المسيحية بين سكان الهند الشرقية أو " القوم الذين عميت أبصارهم " كما ورد فى قرار مجلس الأمناء بمناسبة تعيين فرديناندوس . والواضح كما يقول بروخمان وشرودر أن نسخاً من هذه الترجمات قد أهديت إلى علماء مشارقة بارزين مما أقلق مكتب التنصير فى روما والذى خشى أن تؤدى هذه الطريقة غير المباشرة فى التنصير إلى بلوغ النسخة البروتستانتية من كلمة الله " (كما هو تعبيرهم) إلى الأراضى الإسلامية قبل النسخ الكاثوليكية . وهذا يعكس الصراع بين الكاثوليكية والبروتستانتية . ومن مقتضيات الإنصاف أن نقرر أن هناك غموضاً يحتوى نزعة أربنيوس التنصيرية فهو نفسه لم ينص على الغرض التنصيرى من وراء طبعاته للكتاب المقدس إلى اللغة العربية ، ولم ينص على شيء فى مقدمة هذه الأعمال بخصوص التنصير كذلك ، بل لقد قيل إنه ومن خلال افتتاحية محاضرته المشار إليها سابقاً والتى ألقاها عام ١٦١٣م كان متسامحاً جداً إلى درجة أن روما الكاثوليكية كانت تطمع فى اجتذابه إلى المذهب الكاثوليكي وتحويله عن البروتستانتية وعن كرسى اللغة العربية بهولندا .

وفى ترجمته للسورة رقم ٢٢ من القرآن أعلن أربنيوس عزمه على ترجمة القرآن كله إلى اللغة اللاتينية .

وقد دارت برأس خليوس خليفة أربنيوس فكرة تشبه تلك الفكرة ، إذ قد رأى أن يترجم القرآن مع تعليق له عليه يرد فيه على أخطاء القرآن كما توهمها ، ومما يذكر أن هذا الرجل كان سئ الفهم للإسلام شديد الكراهية له والتعصب ضده [1]. وكان خوليوس معنياً بكتابة رد آخر على الإسلام ، وذلك بعد هذا الكلام الذى نشره فى مقدمة طبعته ابن عرب شاه ، ونادى فيه بضرورة تعريف العالم المسيحى بأخطاء وخرافات الإسلام والمسلمين والرد الذى كان يخطط خوليوس لترجمته إلى اللاتينية كتبه يوحنا أندرياس [2] ، وكان القصد من ترجمة هذا الرد المسيحى على الإسلام هو معالجة " الجرح الذى أحدثه الإسلام " وتجنيب الطلبة الهولنديين الوقوع فى « فخاخ الزندقة الإسلامية » وكان المقصود بهذه الترجمات هم نصارى الشرق الأوسط المتحدثين بالعربية ، والذين نجوا من الطوفان الإسلامى . " وفى نفس الوقت فقد كانت هذه الترجمات موجهة ضد الكاثوليكية التى كانت تعمل فى أوساط مسيحيى الشرق ، وكان من الطبيعى أن يحدث مثل هذا العمل قلقاً شديداً بين الكاثوليك فى أوروبا .

وإذا كنا نلاحظ أن النزعة إلى التنصير لم تكن فى البداية مسيطرة على أنشطة المستشرقين الهولنديين فإن ذلك ليس

(١) المصدر السابق ص ١٦ ، ١٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧ .

معناه أن هولندا كانت بعيدة عن هذا المجال ، كلا فإننا قد ذكرنا على سبيل المثال أن خطة خروتيوس كانت ترمى إلى " إقناع الكفار واليهود والمسلمين بالصدق المنجى ومد حدود المسيحية إلى بقاع أخرى " وفى " دليل الديانة الصحيحة " كتب خرويتوس رسالة شعرية يرد بها على الإسلام .

وقد نص فوتيوس من علماء الكلام واللغة العربية فى أوترخت على فائدة تعليم اللغة العربية للطلبة الذين قد يرحلون إلى جزر الهند الشرقية للعمل كمنصرين .

وقد ذكر رافيوس أن من المراحل التسع للدراسات الشرقية : " أننا نهيئ المسلمين ، والصينيين جميعاً للعقيدة المسيحية التى لا يكون الخلاص إلا فى نطاقها ، وكان مما فكر فيه رافيوس الألمانى أيضاً إنشاء مركز للتنصير ليس فى هولندا بل فى كييل بألمانيا " .

ومن فوائد تعلم اللغة العربية التى عدها أربنيوس فى افتتاحية محاضرته المشار إليها سلفاً « أن كل من يعرف هذه اللغة يستطيع أن يجوب كل أرجاء آسيا وأفريقيا تقريباً » .

وعدد هذا العالم الهولندى البلدان الناطقة باللغة العربية فى هذه القارات ثم قال : " ومن العسير أن نجد أمة أو مدينة أو قرية ، بل وبيتا دون أن نجد فيه أناساً يعرفون العربية ، وذلك لأن كثيراً من القوم يحرصون على أن يتعلم أطفالهم - تعليماً جيداً - الأدب العربى حتى لا يقتصر ما يفهمونه على القرآن ، الذى يفترض فى كل شخص أن يقرأه بل يتعدى الفهم للقرآن

إلى الكتابات الأخرى رسمية وخاصة ، وقد روى على أن كتابة مواثيق الأمراء والعقود وأعمال الرجال البارزين وغيرهم من جمهور الشعب كانت بهذه اللغة ...[1] .

وفى هذا الوقت كان النشاط العلمى واسعا فى مجال جمع المخطوطات العربية ودراستها أو ترجمتها ، وأيضاً كانت الوفود والبعثات مستمرة بين هولندا والبلاد العربية أو الإسلامية مما عزز الصلات الفكرية والدبلوماسية بينهما . ومهما كانت دوافع هذه الدراسة أو تلك البعثات فإنها قد ساعدت بلا شك على توثيق العلاقات وتقوية الصلات بين المسلمين والنصارى فى الغرب .

---

(١) المصدر السابق ص١٨ - ٢٠ .

الدراسات الإسلامية الأقرب

إلى الموضوعية فى الغرب

بدأت الكتابات الغربية ومشاهدات الرحالة الغربيين فى بلدان العالم الإسلامى تظهر فى الغرب بطريقة ملحوظة ، وقد اقتصرت اهتمامات الغربيين بالإسلام فى البداية على القرآن واللغة العربية وآدابها ، وكان هذا الاهتمام مرتبطا بأقسام الدراسات اللاهوتية ودراسات اللغات السامية Theology and semiticphloloy واتجهت حركة الإصلاح فى أوروبا إلى دراسة الكتاب المقدس فى نسخته العربية ، وقد توجهت أنظار بعض الباحثين فى مجال نصوص الكتاب المقدس صوب اللغة العربية وذلك للاستعانة بها على فهم بعض العبارات العبرية فى هذا الكتاب .

وكان من أوائل هؤلاء توماس بدويل (١٥٦٣- ١٦٣٢) Thomas Bedwelفى جامعة كمبردج وكان بدويل أول من قدم دراسة اللغة العربية للمجتمع الإنجليزى ، ثم سارت خطى بعض العلماء فى هذا الاتجاه ، ولم تتوقف وكان أن جلس العالم اللاهوتى إدوارد بوكوك (١٦٠٤- ١٦٩١) Eedward Pocock على أول كرسى للدراسات العربية بجامعة أكسفورد وإلى هذا الرجل يرجع تعريف الغربيين بالتاريخ الجاهلى للعرب وبعلم الكلام الإسلامى . وذلك من خلال كتابه Specimen Historae Arabum والذى نشره فى عام ١٦٥٠م وغير ذلك من كتاباته

الرائدة فى هذا المجال (١) .

ومع نهاية القرن السابع عشر بدأت الدولة التركية تضعف بشكل ملحوظ جداً ، فقد أجهضت محاولة دخول فيينا فى عام ١٦٨٣م وبدأت أوروبا على أثر ذلك تنتعش وتبدخل فى تحد مباشر مع المسلمين ، وفى هذه الأثناء أيضاً كان عصر التنوير قد بدأ فى فرنسا مما فتح الطريق أمام دراسة أكثر جدية وعمقاً لعالم الشرق . وقد اهتم فريق من العلماء اهتماما كبيراً بقارة آسيا بالذات وشجع على الدراسة العلمية فى هذا الصدد ، وعندما كتب برثلومى دى هيربلوت Bartholome De Herbelot ١٦٢٥- ١٦٩٩ موسوعته استقى من العربية والفارسية والتركية المادة العلمية لهذه الموسوعة Bibliothoeuqe Orentaleوالتى ظهرت بعد وفاته عام ١٦٩٧ وهى أول موسوعة فى تاريخ وثقافة الشعوب الإسلامية وفى التأريخ للمؤلفين المسلمين والإشارة إلى الكتب العلمية فى هذه اللغات . ولقد مثلت هذه الموسوعة حجر الرحى فى الدراسات الاستشراقية وعلى مدى فترة زمنية طويلة ، بعد عقدين من الزمان ظهرت ترجمة ألف ليلة وليلة لـ أنتوين جلاند Antoine Galland والتى لم تلبث أن تُرجمت إلى اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية ، وقد أُستقبلت ألف ليلة وليلة فى هذه اللغات بحفاوة شديدة إلى درجة أنها وإلى حد كبير ، شكلت صورة الرجل الشرقى أو المسلم العربى فى أذهان الغربيين .

---

(1) Endress an introduction to Islam P . 10

وفى عصر التنوير ، ظهرت الدعوة أيضاً بين الغربيين إلى ضرورة النظر إلى محمد ﷺ والقرآن بنظرة أكثر موضوعية ، وقد احترمت ، بلا شك هذه الدعوة ، وكاستجابة لها ظهر كتاب De Religion Mohammedica 1705 لمؤلفه المستشرق Adrinus Rebndus الذى تخلص فيه من الأخطاء القديمة ، كما يحكى جيرهارد إندرس ؛ ثم جاءت ترجمة سيل لمعانى القرآن عام ١٧٣٤ أكثر موضوعية ووضوحاً ، وإن كانت لا تخلو من الأخطاء [(١)]. ويراجع هذا بالتفصيل فى كتابى القرآن الكريم من المنظور الاستشراقى . منظمة الإسسكو (تحت الطبع) باب ترجمة القرآن .

وإلى جيكوب ريسك (١٧١٦ - ١٧٧٤م) يرجع الفضل فى جعل الدراسات العربية فى أوروبا مستقلة بنفسها عن العلوم الأخرى ، ولأول مرة كما مرَّبنا فى قرينة الحديث عن الدراسات العربية فى هولندا ، ولكننا ينبغى أن نتذكر أن ريسك قد ترجم تاريخ أبى الفداء بن كثير إلى اللغة اللاتينية ، ولكنه لم يجد للأسف فى هذا الوقت من يشتريه عندما ظهر الجزء الأول منه ، مما تسبب فى عدم نشر بقية الأجزاء الأخرى وقد استطاع هذا المستشرق الكبير أن يؤلف كمّاً كبيراً من الكتب فى الشعر والأمثال والطب العربى ، ومن أهم ما قدمه ريسك للقارئ الغربى تفسيره للتاريخ الإسلامى على أنه أمثلة أو حلقة من

---

(١) المصدر السابق ص ١١ .

التاريخ الكونى ، والذى كان بحق سابقاً لزمانه .

وكما يقول إندرس أن ذاكرة تاريخ البحث العلمى فى الغرب تحتفظ بريسك كشهيد للأدب العربى " Martyr of Arabic Literature" ومما يدل على سمو مكانة هذا الرجل فى مجال دراسة العلوم العربية والإسلامية ، أن الدراسات العربية قد انحطت بعد وفاته ، ولم تعد إلى مكانتها السابقة إلا مع مطلع الثورة الفرنسية التى غيرت وجه العالم كما يقال عنها ، فجددت روح البحث العلمى وأقبلت أكثر على الدراسات الإسلامية والعربية .

وعلى قائمة الدراسات العربية والإسلامية فى الغرب يظهر بوضوح اسم كرستن نيوبهر Carsten Niebuhr (١٧٣٣- ١٨١٥م) ، فقد قام هذا الرجل برحلة غير موفقة للمنطقة العربية قام بتمويلها ملك الدنمارك .

وفرانكويس فولنى Francios Volney الذى أمضى السنوات من١٧٨٣إلى ١٧٨٦ فى مصر وسوريا ودوّن ملحوظاته بشأن المجتمع العربى ، والنظام الاقتصادى الذى كان سائداً فيه تحت الحكم العثمانى ، وكان تشخيص هذا الكاتب لأسباب سقوط الاقتصاد والثقافة العربيتين على أنها تكمن فى أسلوب الاستبداد الشرقى فى الحكم Drienal Despotism والدعم بالقدرية أو الاستسلامية الإسلامية . وهذا الحكم ظل يشكل رأى المؤرخين الغربيين فى الإسلام لوقت طويل [١].

---

(١) نفس الموضوع .

ظهور الدراسات اللغوية الشرقية

فى الغرب

نحن الآن مقبلون على ملاحظة كلمة " استشراق متى ظهرت وإلى أى شىء أشارت هذه الكلمة .

ظهرت كلمة المستشرق Orientalist لأول مرة فى إنجلترا فى عام١٧٧٩م وذلك فى رسالة جول إدوارد بوكوك . وفى عام ١٧٩١م ظهرت الكلمة فى فرنسا ، وبوصول عام ١٨٣٨م صارت كلمة الاستشراق Orientalism موضوع مقال بقاموس Dictionnaire de Jacademie Francaise .

ومما ينبغى معرفته أن كلمة " الاستشراق " قد استعملت فى البداية فى الدلالة على دراسة الشرق من جميع أطرافه ، الشرق الأدنى ، والشرق الأقصى . وبالطبع تطورت الكلمة بحيث تتسع للتعبير عن دراسة ديانات وعلوم ومعارف وتراث الشرق كله ، من أقصاه إلى أقصاه ولكن الكلمة ارتبطت عندنا بدراسة البلدان العربية والإسلامية بوجه خاص ، وقد تستعمل كلمة Arabist فى الإشارة إلى دارس العلوم العربية بخاصة .

بعد ذلك ظهرت الأكاديميات والأقسام المتخصصة فى الاستشراق وظهرت كذلك الجمعيات العلمية لذات الغرض ، وعلى سبيل المثال مدرسة اللغات الشرقية التى تأسست فى فرنسا فى عام ١٨٩٥م ، كما ظهر جيل من الأوروبيين الذين تخصصوا فى العلوم العربية والإسلامية المختلفة وفى عام

١٧٨٤م تأسست فى كلكتًا بالهند الجمعية الأسيوية للبنغال ، والتى لم تقتصر على دراسة الحضارة الهندية Indology فحسب بل شملت أيضاً دراسة الثقافة الإسلامية بالهند . ونشر يوسف فون همر يورجتال (١٧٧٤-١٨٥٦) فى فيينا جرنالا علمياً متخصصاً بعنوان Fundgruben des Orients وذلك فى الفترة ما بين ١٨٠٩- ١٨١٨م . وفى عام ١٧٥٤ أسست أكاديمية فيينا ، وتأسست الجمعية الآسيوية بباريس عام ١٨٢١ ، والجمعية الملكية الآسيوية بالمملكة المتحدة وأيرلندا بعد ذلك ، فى عام ١٨٣٤ . ثم تبعتها الجمعية الاستشراقية الأمريكية فى عام ١٨٤٢ ومثيلتها فى هولندا فى عام ١٨٤٥ .

وما أن نصل إلى منتصف القرن التاسع عشر حتى نجد أن الدراسات الاستشراقية قد بلغت الذروة فى شتى صنوف المعرفة الشرقية والإسلامية منها بخاصة ، ومن هذا المنطلق ظهرت الأعمال الاستشراقية الكبيرة ، كالموسوعات ، والمعاجم والكتب المحققة ، وأمهات كتب التراث ، وسوف تظهر كذلك أسماء كبار المستشرقين المبدعين الذين أثروا الدراسات الاستشراقية ، وأطلعوا شعوبهم على أسرار وإبداعات الشعوب الشرقية ، ونقلوا فى نفس الوقت وجهات نظر شعوبهم إلى عوالم ما وراء البحار .

نذكر على سبيل المثال لا الحصر . جوستاف ويل ، ألويس اسبرنجر ، وليام مور ، نولدكه (١٨٦٠) . فريدريك اسكواللى (١٩٠٩ -١٩١٩) . الفريد فون كريمر . فيرديناند وستينفيلد

(١٨٠٨ - ١٨٩٩م) وكارل جوهان تومبرج ، مايكل أمارى (١٨٠٦ - ١٨٨٩) جولياس ويلهاوسن . ليون كاتنى . استانلى لين بول وكارل بروكلمان ، وجولد زيمر ، (١٨٥٠ - ١٩٢١) وريتشارد هارتمان . وماكس ويبر .

وإلى مثل هؤلاء العمالقة من المستشرقين يرجع فضل إخراج الموسوعة الإسلامية ، والتى بدئ فى تجميعها بالفعل بعد قرار مؤتمر المستشرقين المنعقد فى جنيف عام ١٨٩٤ وذلك بواسطة جولد زيمر ودى جوجى وكارباسيك .

وقد ظهرت هذه الموسوعة المهمة فى عام ١٩٠٨م ثم ظهرت فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا تباعا ، وقد تعاون على كتابتها حوالى مائة مستشرق واستغرقت كتابتها حوالى الثلاثين عاماً ، ثم صدر لها ملحق فى عام ١٩٣٨ .

ومن الجدير بالذكر أن المنظمة الإسلامية للعلوم والثقافة والتربية إسسكو تقوم بإعداد مشروع للرد على الأخطاء الواردة ، بها وقد كلف مؤلف هذا الكتاب بدراسة آراء المستشرقين فى هذه الموسوعة والرد عليها بما يتصل بالمدخل الخاص بالقرآن الكريم ، وهو الآن تحت الطبع .

استمر اهتمام الغرب بالدراسات الإسلامية والعربية ، وظل هذا الاهتمام فى ازدياد مضطرد وتوسع دائم ، وقد لفت اهتمام المستشرقين بالإسلام واللغة العربية أيضاً المسلمين والعرب ، فاعتنوا بإبراز أعمال المستشرقين وإعادة طباعتها والرد عليها أحياناً ، وقد تفاعل بعض المثقفين المسلمين مع

المنهج الغربى فى البحث العلمى بل وربما أيضاً فى النتائج التى توصلوا إليها إلى درجة أن بعض مفكرى المسلمين المحدثين قد قبل بعضها ، هذا بالرغم مِمَّا فيها من ضعف وتخلخل وعدم إنصاف كذلك فى كثير من الموضوعات .

وقد أطلق الباحثون على القرن السابع عشر العصر الذهبى لهولندا إذ بلغت فى الدراسات العربية والإسلامية شأوا بعيدا مع التميز الواضح بالتسامح الدينى ومنح الحرية الدينية ، مما جعل هولندا بحق أشبه بالمستراح أو الملجأ الآمن للمضطهدين دينيا ومذهبياً ، من البروتستانت ومن المفكرين الآخرين كذلك فقد أقام بايل وديكارت الفرنسيان وكذلك لوك الإنجليزى فى نثرلاند ، هولندا . وفى هذا القرن تغنى بايل بفضائل التسامح الإسلامى فى معجمه التاريخى النقدى المطبوع فى روتردام فى عام ١٦٩٧ . مما يدل على أن حصار الأتراك لفيينا لم يؤثر على هذا الكاتب الفرنسى . وقد صدرت أول ترجمة هولندية لمعانى القرآن سنة ١٦٤١ ، كما ظهرت ترجمة أخرى له فى عام ١٦٥٨ .

وأعيد طبع هذه الترجمة الأخيرة سبع مرات فى السنوات الثمانين التالية وقد تميز هذا العصر بالتسامح والاستنارة والميل إلى الموضوعية فى الكتابة واختيار الأصلح علميا لذاته . وقد ألف أدريانريلاند (١٦٧٦ - ١٧١٨) كتاباً فى **الديانة المحمدية** عام ١٧٠٥ وفى هذا الكتاب عرض ريلاند مزايا الإسلام ، مستنكراً الأحكام السابقة والمجحفة عليه ، فهو ينكر على القائلين مثلا بأن ما جاء فى الإسلام عن صفات الله مما هو

مطابق للحق يجب رده وعدم الأخذ به ويعتبر الكاتب أن هذا القول ينافى العقل ، بل إن مترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية يقول : فى صيغة تسائل " وماذا بعد ؟ أينبئنا هؤلاء القوم (أى المسلمين) بأمور غاية فى الإبداع والجمال عن الكمال الإلهى ، ثم يقتضينا الأمر أن ننكر ما يقولون ، ونطمث الحقائق الكبرى لدين الفطرة ودين الوحى ؟ أين المرء ذو الحجى الذى يسلم لهم بذلك " . أى يسلم بهذه الحقائق الكبرى ! إن الحجج التى ساقها بريدو لإنكار محمد والمعتقدين بالله وحده يبدو أنها قول معكوس . ومن الواضح لنا أنه بهذه الكلمات قد فتح واضع الكتاب ومترجمه معاً الباب أمام الأوروبيين لإزالة الخلافات والألغام بين المسلمين والنصارى من أجل إقامة حياة أكثر انسجاماً واستنارة .

فى أوائل القرن الثامن عشر افتتحت أقسام أخرى للغة العربية فى هولندا ، على الأقل في خمس جامعات هولندية إيماناً من هولندا التجارية الكلفينية فى أن العلم يزيد فى تمجيد الله كما يقول بروخمان وشرودر .

وفى هذا العصر ترجم كتاب حى بن يقظان لابن طفيل الأندلسى (٤٩٦هـ -٥٨١هـ ، ١١٠٠م- ١١٨٥م) ونسبت الترجمة خطأ إلى الفيلسوف المعروف سبينوزا [١] . لقد هاجم ريلاند فى كتابه الديانة المحمدية بدعوى التعصب الدينى والتطرف فى

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

المواقف ضد الآخرين وفى سبيل حديثه عن الإسلام كدين وعن الأديان المخالفة للنصرانية يقول :" إنهم كانوا يعدون قتلة للبشر ، يضاجعون المحارم ، ويدنسون المقدسات ، كما كانوا أعداء للجنس البشرى : يقترفون جميع الجرائم ؛ ومن ثم فهم أعداء للآلهة والقياصرة كافة ، أعداء للأخلاق وكل ما فطرنا عليه ؛ ومن ثم فإن وصف المرء بالمسيحية كان كافياً لرميه بالإثم ، وحسب المسيحى نعته بهذا النعت حتى يرمى بالتهم "
ويستمر ريلاند قائلا : " إن البروتستانت لم يكونوا يعاملون معاملة أفضل من هذه على يد أتباع البابوات ، وشاهد ذلك أن جينييرادوس لا يتردد فى التأكيد بأن مارتن لوثر سوف يجلب مملكة محمد إلى المنطقة ، وأن قساوسته وشيعته قد تنافسوا بالفعل فيما بينهم على الارتداد إلى دين محمد " .

وينقل إلينا ريلاند أيضاً قول فيفالدو : " إن البروتستانت والمسلمين سواء "وهو يحتج بأن هذا الضرب من التدليل خليق بأن يجعل المسيحيين كافة مسلمين . ويقول لنا فى موضع آخر ولو أن ديناً قد صوره أعداؤه تصويراً سيئاً ونظروا إليه نظرة ازدراء ، وعدوه غير جدير بالدحض والتفنيد - لكان هذا الدين حقا (هو الإسلام)، وكل امرئ يود أن ينعت عقيدة كريهة ممجوجة بنعت مناسب يسميها المحمدية ، كأنما لا يوجد شىء سليم خالص فى عقيدة محمد". وقد مرت بنا مثل هذه الأقوال

الشريرة تجاه الإسلام على أنه لابد أن يكون واضحاً فى أذهاننا أن ريلاند لا يصدر فيما قاله عن حب للإسلام بل فقد للرغبة فى أن يكون أميناً فى عرضه وتصويره لهذا الدين ، لأنه كما يقول يجب على المرء أن يلتمس الحق أينما وجده ، ويبدو لى أنه مطمح ممدوح أن يسدل الستار على الزيف وأن يقدم هذا الدين المنتشر لمن يرغب فى وضعه موضع الاعتبار بريئاً من التحريف لا تغشاه سحب الحقد والخطأ ، أجل : يقدمه كما يدرس في مساجد المسلمين ومدارسهم " (١) .

برغم وجاهة هذا الكلام فإننا لا يمكن أن نقول بأن نظرة الغرب إلى الإسلام قد وصلت إلى هذا المستوى النظرى الذى حاول ريلاند تأسيسه فى ذهن القارئ فإن الموقف الغربى لم يصل بعد إلى هذا الحد من الموضوعية . فقد نوه نفس الكاتب أيضاً بفائدة الدراسات الشرقية وبالذات اللغة العربية والإسلام فى الأغراض التجارية ونشاط بعثات التبشير المسيحية ، وفى التفاسير اللغوية للكتاب المقدس ، لكن هذا لا يمنع قط من القول بتعاطف ريلاند مع الكتابات الإسلامية فإن العلوم الإسلامية قد ازدهرت وتقدمت بحلول القرن العاشر الذى كانت فيه الفنون والعلوم بين المسيحيين تكاد تكون ثاوية فى قبرها ، وقد جاء كتابه فى الحقيقة كدائرة معارف تحتوى على كثير من العلوم الإسلامية ، والدفاع عن الإسلام ضد

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩ .

أباطيل كثيرة لفَّقها الكتَّاب البيزنطيون والمسيحيون بصورة عامة كما ذكرنا ، وقد ترجم كتاب ريلاند المشار إليه سابقاً إلى الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية بل إلى الأسبانية ، وأدخل فى الوقت نفسه فى قائمة الكتب المحرمة كنسيًّا من وجهة النظر الكاثوليكية وكما يقول نورمان دانيال فى كتابه الإسلام والغرب الذى صدرت أول طبعة له عام ١٩٦٠ إن هذا الكتاب " هو حقاً أهم كتاب بين عدة كتب ساعدت على استبعاد الأساطير ، وإحلال الحقائق والحقائق فقط مكانها ، بل إنه يمكن أن يدرس اليوم ، لما فيه من فوائد عظيمة " (١) .

وفى أواخر القرن الثامن عشر شهدت هولندا اهتماماً متزايداً وفاعلا بالعناصر الجمالية فى الأدب العربى تجاوز حدود الجامعة ، فقد كان الأثرياء الهولنديون ، وهم كثرة يهتمون بالأدب العربى وبالعلوم العربية كثيرا إلى درجة أطلق معها على هذا العصر عصر الشعور المستعارة فقد كان هؤلاء العلماء والأثرياء الهولنديون يقبلون بشغف على أخبار الرحالة الذين كتبوا عن الشرق ، كما ترجمت أعمال عربية عظيمة مثل ألف ليلة وليلة وغيرها ، كما عكست مسرحية أونو زوير فان هرين " أجون سلطان بانتام " (١٧٦٩) كثيراً من مشاهد الحياة الشرقية فى إندونيسيا والهند وغيرها . وظهرت بعد ذلك كتابات عن الحياة العربية والشعب العربى والخيال العربى

---

(1) Norman Daniel , Islam and the West , edinburgh 1960 , P . 295 .

بصفة عامة بل وعن العقلية العربية والبيئة العربية حيث وصف العرب بأنهم أحدُّ ذكاء وأكثر رشاقة وأشد غيرة من غيرهم . جاء هذا فى محاضرة عن صفات العرب ألقيت فى جامعة ليدن عام ١٧٨٨[١].

وطبعت بعض كتب الأمثال العربية وكتب التفاسير وكتب التراث محققة وقد ترجم بيلد رديك مقصورة ابن دريد التى ظلت درة فى جبين الأدب الهولندى ، وقد قام هذا الرجل بالترجمة وهو فى المنفى وذلك لأنه نفى بسبب رفضه المساهمة فى إعلان حقوق الإنسان الذى أعلنته الحكومة الثورية للجمهورية الباتافية التابعة لفرنسا عام ١٧٩٥ وقد مجد هذا الأديب الهولندى الشعر العربى تمجيداً عالياً فى مقابل الأشعار والآداب الغربية ، إنه يقرر أن شعراءهم إنما كانوا مقلدين لغيرهم ، وأنهم عندما كانوا يستغرقون فى الخيال ، لا يأتون إلا بشعر ركيك ، بل كان الأدباء الهولنديون فى بعض الأحيان يقلدون النماذج الأدبية الشرقية حتى يظهروا بمظهر الضفادع المنتفخة . إن الاهتمام بطبع الكتب العربية ونشرها فى هولندا لم يتوقف قط كما حدث فى فرنسا مثلا فى الشطر الأكبر من هذا القرن ويعلل . بروخمان وشرودر على ذلك بقولهما " ذلك أن اللغة العربية خدمت اللاهوت فى هولندا ، ولكنها خدمت

---

(١) الدراسات الإسلامية فى هولندا ص ٣٣ ، ٣٤ .

الدبلوماسية فى البلاد الأخرى ، وكانت نتائج ذلك أسوأ بالنسبة للعلم " (١).

أما فى القرن التاسع عشر والذى ظهرت فيه كثير من الحركات والمذاهب الفكرية والسياسية وظهرت فيه القومية أيضاً فإن اهتمام هولندا بالدراسات العربية لم يتوقف ، ومما يميز هذه الفترة ما كتبه دوزى عن الإسلام والمسلمين يقول إن الكتب العربية قد زادت من تبصير أوروبا بالإسلام ويشير دوزى إلى أنه فى فرنسا قد أنشئت مدرسة اللغات الشرقية الحية ويتكلم كذلك عن اهتمام فرنسا بالشرق أيام نابليون وإبان غزو فرنسا للجزائر ومصر وغيرهما من البلدان العربية ويذكر أنه فى هذا القرن قد نشرت كتب عربية كثيرة بلغات أوروبية ونشر فهرس المخطوطات الشرقية فى مكتبة جامعة ليدن (١٨٥١ - ١٨٧٧) بعناية دوزى وده يونج وده خويه وهاو تسمان وغير ذلك وحقق خويه كتاب ابن حوقل ونشر كرامرس كتاب صورة الأرض للإدريسى وحقق مورسينجه كتاب طبقات المفسرين للسيوطى كما حقق يونبل (١٨٠٢ - ١٨٦١) ديوان المتنبى وفى نفس الوقت بدأ نشر مختصر معجم ياقوت وهو مراصد الاطلاع وكتاب ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) (١٨٥٢ -١٨٦١) وذلك بالتعاون مع آخرين .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦ ، ٣٨ .

الباب الخامس

تقويم العلاقات العلمية والثقافية والسياسية بين المسلمين والغربيين

لم يكن الفتح الإسلامى لأسبانيا وصقلية النصرانيتين هو بداية الاحتكاك العسكرى بين المسلمين والمسيحيين الغربيين فقط وإنما كان أيضاً بداية للاحتكاك بثقافة وعلوم وتقاليد جديدة لم يكن لأوروبا عهد بها . يؤرخ لهذا الاحتكاك بشهر يوليو عام (٩٢هـ - ٧١٠م) حيث أرسل مسلمو شمال أفريقيا قوة استكشافية إلى أقصى أطراف أسبانيا الجنوبية . وفى العام الذى يليه (٩٣هـ - ٧١١م) زحف الجيش المسلم بالآلاف لفتح هذه البلاد ، وبالفعل تم له النجاح بالفوز على قوة برودريك ملك القوط وعلى مدى أربع سنوات صار المسلمون يحكمون كافة المدن الأسبانية المهمة . وكان مما دخل تحت حكم المسلمين فى هذه الأونة مدينة ناربون الواقعة جنوب فرنسا ، والتى كانت تحت الحكم القوطى الغربى ، وسرعان ما توطد حكم المسلمين فى هذه المنطقة وظهر الطابع العربى والإسلامى فيها .

استقلت الدولة الإسلامية بإمارة عبد الرحمن الأول (الداخل) عام (١٣٩هـ - ٧٥٦م) الذى كان يحكم البلاد من مدينة قرطبة الإسلامية . لقد استقلت الدولة الإسلامية فى الأندلس عن

الخلافة فى الشرق الإسلامى ولكنها ظلت إسلامية عربية فى كل شىء تقريباً .

ويجمع المؤرخون عرباً وأوروبيين على أن أسبانيا قد بلغت أوج عظمتها فى كل الجوانب خلال حكم عبد الرحمن الناصر (٣٠٠- ٣٥٠هـ - ٩١٢ - ٩٦١م) أقوى حكام العالم فى عصره وأشهرهم . صارت الأندلس بفضل هذا الحاكم العظيم كعبة للعلم ومنارة للمعرفة فى أوروبا وفى العالم كله ، انتشرت فيها دور العلم والمكتبات وراج فيها التأليف والترجمة ، واستجلبت إليها أهم أعمال المبدعين فى شتى صنوف المعرفة ؛ وأصبح كل مواطن فى ظل الخلافة الإسلامية مثقفاً بحيث لم يكن بينهم أمياً واحدا ، أو أمية واحدة ، ولقد ازدهرت الدراسات اليهودية والمسيحية فى الأندلس وقامت بين دار الخلافة الإسلامية ودور الحكم الأوروبية المختلفة علاقات علمية ، ودبلوماسية كثيرة ، وقد ساعد هذا الاتصال المتواصل بين الغرب الإسلامى والغرب النصرانى على نقل العلوم الإسلامية والحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، وتوافد كذلك الطلاب الأوروبيون على معاهد ودور العلم الأندلسية لينهلوا من علوم المسلمين ومعارفهم ، ثم عادوا إلى بلادهم لينشروا هذه العلوم والمعارف بين أقوامهم .

نقلت كثير من العلوم الإسلامية إلى أوروبا إذن عن طريق طلاب العلم النصارى الوافدين إلى الأندلس بغرض الدراسة ، وأيضاً عن طريق المستعربين من أهل البلاد ، ثم عن اليهود

الذين رحلوا إلى أوروبا هروباً بأنفسهم من محاكم التفتيش بعد سقوط الحكم الإسلامى من الأندلس بسقوط غرناطة فى عام (٨٩٨هـ - ١٤٩٢م) .

أما الاحتكاك الآخر فقد كان بين المسلمين والنصارى اللاتين فى صقلية فى عام (٣٢هـ - ٦٥٢م) حين فتحت مدينة سرقوسة وتغلب الأسطول الإسلامى على الأسطول البيزنطى .

ودخل العرب مدينة نابلى الإيطالية عام (٢٢٣هـ - ٨٣٧م) ، وبارى شمالى برنديزى على بحر الأدرياتيك عام (٢٢٧ - ٢٣٣هـ / ٨٤١- ٨٤٧م) بل لقد كادت روما أن تخضع لحكمهم عام (٢٣٣هـ - ٨٤٧م) ثم عام (٢٣٥هـ - ٨٤٩م) . ويبدو أن البابا يوحنا الثامن (٢٥٩ - ٢٦٩ هـ / ٨٧٢ - ٨٨٢م)ظل يؤدى للمسلمين الجزية لمدة عامين .

وبالطبع فقد تأثرت البلدان التى حل بها المسلمون تأثرا شديدا بالحضارة الإسلامية فى عمومها وشمولها . وبعيداً عن الاحتكاكات العسكرية والفتوحات فقد كانت هناك علاقات وصلات تجارية ودبلوماسية وعلمية أيضاً بين المسلمين والغربيين ، فقد كان اليهود والنصارى فى الأندلس يحيون حياة طيبة ويعملون جنباً إلى جنب مع المسلمين .

ولم تكن هناك أية حواجز أو امتيازات خاصة لأى فريق ، وعلى الرغم من قوة الإسلام وسيطرته هناك فإن المجرى العام للحضارة الإسلامية كانت تصب فيه كل قوى الإبداع البشرى بغض النظر عن الجنس أو الدين أو اللون ، وكان من نتائج

الحرية الدينية المكفولة للجميع أن نشطت بعض الأفكار المعادية للإسلام بل للأديان بصفة عامة ؛ إذ ظهرت فى الأندلس الدعوة إلى دين عام واحد يضم جميع الأديان ويجتمع بنو الإنسان عليه ، وقد بنى أصحاب هذه الدعوة نظريتهم تلك على القول بتكافؤ الأدلة أى استواء أدلة أهل الأديان جميعاً من حيث الصحة أو البطلان ، ومعنى هذا أنه لا يمكن نصر مذهب على مذهب ، ولا تغليب مقالة على مقالة حتى يلوح الحق من الباطل ظاهراً بيناً لا إشكال فيه ، بل دلائل كل مقالة فهى مكافئة لأدلة سائر المقالات . وقال أصحاب تكافؤ الأدلة كل ما ثبت بالجدل فإنه بالجدل ينقض ، إذ لدى كل أهل دين براهينهم وأدلتهم على صحة دينهم ، وهكذا فى المذاهب والمقالات والآراء وأنه بالفحص نجد أن كل دليل هادم للآخر ، وكل فريق يناصر دينه ، ويبطل ؛ وينكر غيره بل إن أهل كل دين يكفرون سائر الأديان الأخرى ، وكلهم يكذب بعضهم بعضا ولذلك ينبغى أن يجتمع البشر على كل ما اتفقت الديانات والعقول على أنه صحيح أو قبيح حتى يتجنبوا الحروب والمنازعات والجدل والمناظرات فيما بينهم وقد أسند ابن حزم هذا القول ، أعنى الدعوة إلى تأسيس دين عام ، إلى إسماعيل بن يونس الطبيب اليهودى [1] .

وهذه الدعوة نفسها تظهر من حين لآخر وبخاصة بين بعض الفلاسفة الغربيين والمشايعين لهم من ذوى الميول الغربية فى

---

(١) انظر رد ابن حزم على أصحاب هذه النظرية فى كتابه " الفصل فى الملل والنحل" ج ٥ ص١٩٣-٢٠٦ .

التفكير ، ولا يعقل أبداً أن يكون هناك دين واحد للجميع ولا يمكن كذلك لسائر البشر أن يتفقو على دين واحد ، بل إن أهل الدين الواحد ينقسمون إلى طوائف وفرق متناحرة وهذه إحدى سمات البشر ، والاختلاف بين أهل الأديان ليس معناه أن كل الأديان غير صحيحة ، أو أن الأديان كلها تؤدى إلى الخلافات بين البشر وتولد الفرقة والنفرة بينهم . كلا فإن التعصب والتطرف والانقسام فى الدين إنما هى أمراض ينبغى أن تَعالج وليس العلاج فى أن يتخلص الإنسان من الدين بل أن يبحث عن الصحيح فى هذا الدين ، وأن يلتزم به ويعمل بمقتضاه . ونعود إلى موضوعنا الأصلى فنقول إن الصلات بين الخليفة وبعض حكام أوروبا متصلة ، وكانت تأخذ شكل بعثات دبلوماسية أو زيارات علمية فقد كانت الوفود الرسمية تأتى محملة بالهدايا إلى خليفة المسلمين عبد الرحمن الناصر ؛ ففى القرن العاشر على سبيل المثال أرسل أحد الأباطرة أعمدة رخامية إلى الخليفة الناصر ليستعملها فى تشييد مدينته العظيمة " الزهراء "، وفى عام (٣٣٨هـ - ٩٤٩م) أرسل قسطنطين السابع بورفيرو جنيتوس Porphyrogenitos ، ضمن مجموعة هدايا قيمة مخطوطا بديعا ونادرا لكتاب ديوسكو ريدس Dioscordes فى النبات . وقد كان المسلمون فى دول المشرق الإسلامى يقدرون هذا الكتاب تقديراً فائقاً ، ولما لم يكن هذا الكتاب قد ترجم بعد إلى الإغريقية ، ولما لم يكن فى الأندلس من يجيد هذه اللغة فيترجمه ، أرسل عبد الرحمن الثالث فى طلب من يقوم

بترجمته إلى العربية ، وبالفعل أرسل الامبراطور كاهنا يدعى نيوكولاس سنة (٣٤٠هـ - ٩٥١م) إلى قرطبة لترجمة الكتاب .

ولكثرة الوفود والبعثات الأجنبية التى كانت ترد على بلاط الخلافة خصص الناصر لدين الله حسداى بن شبروط اليهودى لاستقبال الوفود الكثيرة التى كانت تتوافد على دار الخلافة بالأندلس [١] والتفاوض معهم .

وقد كانت حياة البذخ والترف والآداب العالية التى تعيشها الأندلس محط أنظار الأوروبيين ، بل لقد مثلت هذه الحياة النموذج الأمثل الذى حذت أوروبا حذوه من جميع النواحى ، العلمية والأدبية والفنية والثقافية ، وغير ذلك ، ولقد وصف الراهب ساليمبين Salimbene بيتا لأحد أثرياء المسلمين بالأندلس وصفاً فخما يعكس تأثره الشديد به .

انتقلت علوم ومعارف علماء المسلمين الأندلسيين إلى أوروبا وذاعت أسماء هؤلاء العلماء المسلمين فى أرجاء البلدان الغربية وذلك كمسلمة المجريطى (توفى ٣٩٨هـ - ١٠٠٧م) وابن السمح وابن الصفار وابن الأفلح والبطروجى [٢] .

---

(1) See Roger . Collins . Early Medievel , Spain , New studies in medreval History, Macmillan Press 1983 P . 200 ff

(٢) انظر طبقات الأمم لصاعد بن أحمد الأندلسى (القاهرة - دار المعارف ١٩٩٨) من ص ٨٤-١٠٨ ،

لقد ساعدت هذه العوامل مجتمعة على انتشار الثقافة العربية بين الأوروبيين وأنارت عقولهم ، وأيقظت فيهم حاسة الخلق والإبداع فى جميع المجالات ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد وطدت العلاقات بين المسلمين والأوروبيين وليس كالعلم فى توطيد العلاقات الطيبة بين الشعوب وبخاصة إذا كان العلم مقترنا بالأخلاق السامية والقيم الرفيعة .

وفى الشرق الإسلامى قامت حركة الترجمة الواسعة لإحياء التراث الإغريقى والفارسى ، وأسس بيت الحكمة لهذا الغرض على عصر المأمون ١٩٨- ٢١٨هـ / ٨١٣ - ٨٣٣م) والذى كان من أكبر أهدافه ترجمة الآداب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية . وهكذا بدأت حركة الترجمة منظمة ، وعلى خطة محكمة يشرف عليها رأس الدولة نفسه ، فترجمت من ثم أمهات كتب العلوم المختلفة من اليونانية إلى العربية على يد مترجمين علماء متمكنين مثل إسحاق بن حنين ، وابنه إسحاق وابن أخيه حبيش وغيرهم ، وقد كانت الترجمات تخضع للتنقيح بعد الفراغ من ترجمتها . وقد استقبلت هذه الترجمات من قبل علماء المسلمين بشغف شديد فقد قرأوها وتمثلوها بعد أن نخلوها ونقحوها مما لا يلائم العقيدة الإسلامية ، ثم شرحوها وأضافوا إليها . وكانت لهم إلى جانب ذلك إبداعاتهم ومساهماتهم فى جميع صنوف العلوم . وسريعاً ما انتقلت هذه الترجمات إلى الغربيين واشتهرت بينهم ، هذا إلى جانب أعمال عمالقة علماء المسلمين كالخوارزمى الذى لمع اسمه فى

الرياضة والفلك وابن سينا وابن رشد والغزالى وابن حزم وابن البيطار وابن الهيثم وابن النفيس والرازى وابن خلدون وابن ميمون اليهودى وغيرهم ممن أمدوا أوروبا بالعلوم الكثيرة والمتنوعة التى دفعتها وهدت مسيرتها نحو هذا التقدم الهائل الذى تحياه فى جميع المجالات .

ويقال إن أول من قام بالترجمة إلى اللاتينية هو جوبرت أوربلاك الذى صار فيما بعد البابا سيلفستر الثانى (٣٩٠-٣٩٤هـ - ٩٩٩-١٠٠٣م) وهناك أسطورة تقول إن هذا الراهب قد ذهب إلى قرطبة وتعلم العلوم المحرمة على يد معلم مسلم ، ثم أغوى ابنته ، وسرق كتبه ومهما يكن الأمر فإن هذا الرجل كان مقدماً فى علوم المنطق والرياضة والحساب ، وكان سابقاً لعصره [(١)] .

وبعد الاحتلال المسيحى لمدينة طليطلة عام (٤٧٨هـ - ١٠٨٥م) بقيت فيها جالية إسلامية وأخرى يهودية استخدمها أسقف هذه المدينة ريموندو فى ترجمة علوم العرب إلى اللاتينية .

وكان هذا الأسقف يشجع العلماء من خارج طليطلة للقدوم إليها وقد زارها بطرس المحترم الذى نظم حركة ترجمة واسعة فيما بعد ، فى سنة (٥٣٧هـ - ١١٤٢م) كما أشرنا إليه من قبل .

وبحلول القرن الثالث عشر توسعت الترجمة ونقلت كل

---

(١) انظر وات فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة ٥١، ٥٣ وزيغريد هونكه - شمس العرب تسطع على العرب ، بيروت دار الجبل ودار الآفاق الجديدة ١٤١٣هـ-١٩٩٣) من ص ٨٠-٨٩، ٢٤٣-٣٣٦، ٣٥٣-٤٠٣ .

الكتب المهمة إلى أوروبا فتعلمتها وأفادت منها وبنت حياتها ، بفضل هذه الكتب ، على العلم وعلى المنهج العلمى ، ونبذت الخرافة والشعوذة التى كانت تسيطر على عقول أهلها فى جميع المجالات وجميع الأحوال .

جاء رد الفعل النصرانى تجاه الإسلام والمسلمين منكراً وحاداً فقد أشرنا فيما سبق إلى يوحنا الدمشقى الذى صب كل ما فى جعبته من عداوة للإسلام فى كتابه الذى ألف فى الطعن على الإسلام والمسلمين ، وللحق فإن هجوم يوحنا على الإسلام إنما جاء بطريقة غير معقولة وغير مقيدة بحد أو مضبوطة بقيم . لقد هاجم كل شىء يشتمل عليه الإسلام لم يستثن منه شيئاً ، وبخاصة ما يتصل بالله تعالى وبالمسيح عليه السلام ، هذا ولم يسلم من نقده حتى تلك الموضوعات المشتركة بين النصرانية والإسلام .

نقد يوحنا الدمشقى القرآن دون رحمة ، واعتبره من تلفيقات محمد ، وزعم أنه ﷺ اختلقه ليبرر به شهواته المستعرة ، وأشار يوحنا فى هذا الصدد إلى قصة زواج زيد بن حارثة ثم زواج الرسول ﷺ بعد أن طلقها زيد ، زاعماً أن الآيات الخاصة بزيد ملفقة لتبرير هذا الزواج الشهوانى منها ، واتهم يوحنا المسلمين بأنهم يعبدون ناقة الله المشار إليها فى سورة الشمس فى قوله تعالى : ﴿ **ناقة الله وسقياها** ﴾[1] .

---

(١) انظر دانيال نورمان الإسلام والغرب ص ١٤ .

وهذا الزعم يشبه ما كان بعض المنصرين يشيعه من أن المسلمين يعبدون القمر مستدلا على ذلك بأن المسلمين يترقبونه كل شهر ويهتمون برؤية الهلال أيما اهتمام ؛ وجهل هذا الأحمق أنهم يترقبون الأهلة كلها لأنها مواقيت للناس والحج ، وجهل أيضاً أن الإسلام هو دين التوحيد الخالص الذى جاء حرباً على عبادة غير الله ، عبادة الشيطان ، أو عبادة البشر ، أو عبادة الظواهر الطبيعية .

ولقد رسم يوحنا الدمشقى للغربيين فكرة أن محمداً ﷺ كان قد لقن القرآن من بحيرا الراهب الذى تكلمت عنه كتب السيرة ، والذى رأى النبى ﷺ فى الشام وهو لا يزال صغير السن ، ورأى علامات النبوة بين كتفيه ﷺ ، وقد سمى يوحنا الدمشقى بحيرا بالراهب الإريانى Arian Monk[1]. والذى سمى فيما بعد سرجيوس Sergius، وأسطورة سرجيوس هذا ترجع إلى أصل بيزنطى غربى . ويذكر هنا بأن الزعم بأن محمداً كان قد تلقى القرآن من لدن بشر قد أثاره أعداء الرسول ﷺ المباشرين وقد نقله إلينا القرآن مشفوعاً بالرد عليه ، يقول تعالى:﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين**﴾[2].

---

(١) انظر سيرة ابن هشام .

(٢) النحل: ١٠٣ .

يعنى أنهم زعموا بأن محمداً قد تلقى القرآن من نصرانى أعجمى لا يعرف العربية وكيف يقبل العقل ذلك ، إذ لم يكن محمد يعرف غير العربية ، ولم تكن كتب النصارى قد ترجمت إلى اللغة العربية إلا بعد قرون من وفاته ﷺ ، بل إنه كان من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يحصل الإنسان فى هذا الوقت على نسخة من هذه الكتب فكيف بالله يستطيع محمد ﷺ أن ينقل عنها أو يتلقى من العارفين بها ؟ .

لقد تطور موضوع نسبة القرآن إلى مصدر بشرى كثيراً وحيكت حوله خيوط عناكب كثيرة من الأخيلة والظنون المريضة ، بالذات بين النصارى واليهود العرب . حتى لقد جمح الخيال ببعضهم فزعم أن القرآن كان قد جاء على قرن بقرة خدع بها محمد الناس وصور لهم أنها جاءتهم من السماء (P.15) .

وزعم نيستاس أنه ما دام محمد قد أقر بأنه قد اقتبس من كتب اليهود والنصارى فإنه بالضرورة يكون قد سلم بصحتها ، وما دام قد وضع فى ثنايا هذه النصوص التى اقتبسها من الكتاب المقدس ، كلاماً من عند نفسه ، ادعى أنه جاءه من المصدر نفسه ، فإنه يكون قد جعل الله إما معدوماً وإما متغيراً ، وإن إلها لا يقبل القانون النصرانى لا يمكن أن يكون إلهاً حقاً . وبناء عليه يكون رب محمد شيطان . ونعوذ بالله من نقل هذا الكفر والضلال . إن مثل هذا الكلام غير المعقول وغير المقبول ، والذى

ينفذ معه صبر قارئه ينم عن مدى الحسرة بل عن خطورة اللوثة العقلية التى أصابت بعض رجال الدين المسيحى الذين لم يجدوا سعادتهم مع الفتح الإسلامى لهذه البلاد ، وتخليصها من الاستعمار الرومانى إلى الأبد .

على أنه من الملاحظ أن الانتصارات التى حققها الإسلام فى بعض البلدان الغربية لم تنتج أدباً جدلياً مثل ما أنتجته الفتوحات الإسلامية فى الشرق ، فاللغة التى كتب بها المستعربون فى الأندلس على سبيل المثال كانت غير حادة عادة Unobtrusive in tone باستثناء فترة منتصف القرن التاسع التى شهدت حركة الشهداء فى قرطبة ، حيث كان نقد أتباع هذه الحركة حاداً ولاذعاً ، بل لقد وصل التهجم بهم إلى حد إهانة الرسول ﷺ وسبه علنا فى الشوارع ، بل إنهم كانوا يلقون بأنفسهم فى المساجد ويتحدون القضاة والعلماء ، والعامة تعجلاً منهم للموت حتى يكتبوا عند الله من الشهداء بزعمهم ، حتى يظهروا المسلمين أيضاً فى صورة السفاكين والقتلة . وقد كان هؤلاء المقتحمون النصارى يروجون لفكرة أن القرآن ، أو الإسلام مبنى على أساس تبرير الجنس والأنغماس فى الشهوات ، وهى الأفكار نفسها التى روج لها سلمان رشدى بطريقة روائية قبيحة وذلك فى روايته آيات شيطانية مع اختلاف الأسلوب والعرض كما صرح به نورمان دانيال (P.17)
أما بالنسبة لهجوم أوروبا فإن هذه الفترة المبكرة ، لا تحمل لنا إلا متفرقات قليلة وأجزاء متناثرة Sparse حول الإسلام ، إذ لم

تكن هناك ثمة حاجة للأوروبيين خارج الأندلس لمهاجمة الإسلام أو معارضته (P.16) ومن الملاحظ أن الكتابات الأوروبية عن الإسلام لم تظهر بصورة منتظمة ومتصلة فى الغرب اللاتينى إلا مع نهاية القرن الحادي عشر والثانى عشر .

ومن أدب تلك الفترة المعادى للإسلام ما ادعاه يولوجيس Eulogius من أن عينه قد وقعت على وصف لمحمد تضمنته بعض المخطوطات ، والتى حملها إلى منزله من بامبلونا Pamplona ، وهذا الوصف بعينه قد وجد أيضاً فى بعض المخطوطات الأخرى ، ويصور واضع هذا الوصف محمداً بأنه كان رجلا فقيراً يعمل مع أرملة اسمها خديجة ، وإنه كان نشيطاً فى التجارة ، وحدث ذات مرة أنه تعرف على رجل متعلم نصرانى سيىء الأخلاق فلقنه ما جاء به فيما بعد ، وهو الكتاب الذى سماه قرآناً . وقد تمثل له روح الخطيئة فى شكل جبريل ، والجميل الطلعة ، وأوحى إليه أن يتنبأ ، وقد كان محمد يعظ فى البداية وهو معجب بنفسه ، ثم تقدم فى الوعظ وأبدى شيئاً من المعقولية فى دعوته ، إذ أنه كان قد أمر أتباعه أن يتخلوا عن عبادة الأصنام ويعبدوا إله السماوات والأرض ، ثم أمرهم بعد ذلك أن يقتلوا أعداءهم ومعارضيهم . لقد ألف محمد مزامير (كمزامير داود) وضعها على ألسنة الحيوانات العجماوات كالبقرة الحمراء (يقصد البقرة الصفراء المشار إليها فى سورة البقرة) ، العنكبوت (وهو اسم سورة فى القرآن الكريم) الذباب (المذكور فى سورة الحج آية ٧٣) ، والهدهد (المشار إليه

فى سورة النمل آية ٢٠- ٢٦) ، وضفدعة الطين Ared Calf.
a road . a hoopoe . Catching flias , aspider . وقد وضع
محمد كذلك فى كتابه كلاماً عن يوسف وزكريا وأم الرب عيسى
ابن مريم . ويتفق كاتب هذه الأضاليل مع يوحنا الدمشقى فى
أن الرسول ﷺ . قد ألف آيات ضمها للقرآن يبرر بها زواجه
من زينب طليقة متبناه زيد بن حارثة (P . 18 F) .

نشطت الكتابات الجدلية والمعارضات فى الأندلس وكان هذا
اللون من الكتابة من نتاج المجتمع المتعدد الجنسيات والديانات
والآراء . من هذه الكتابات رد كتبه أبو الوليد الباجى
الفقيه المالكى ، على منصر أسبانى ، لا نعرف شيئاً عنه غير ما
كتبه فى الطعن على الإسلام ، نشر هذا الرد المستشرق دانلوب
D . M . Dunlop فى عام ١٩٥٢ .

وبالطبع فقد صور أدب تلك الفترة الإسلام بأنه دين وثنى
هرطقى ، خال من القيم ، وأن القرآن من كلام محمد ، وغير
ذلك من الأكاذيب التى استعرضناها وفندناها فيما سبق .

ويوجد كذلك على القائمة من أدب الرد والمعارضة مناظرة
جرت بين أحمد بن رشيق ، وأحد القساوسة حققها ودرسها
قسيس . ومما جاء فى هذه المناظرة ورواه أبو العباس
الوانتريسى أن المتحدث العربى باسم بعض المسيحيين المحليين
والأجانب ، والذى كان يعمل أكليركيا فى موراسيا كان يتكلم
باحترام عن رسول الله ﷺ ، وعن القرآن وكان لذلك يحتقر أى
تفكير يذهب إلى أن الوحى الكريم ، يعنى القرآن يمكن

أن يخضع للتساؤل (P. 21) كما توجد قصيدة لابن حزم الأندلسى فى الرد على نقفور ملك الروم والتى احتفظ لنا بها الإمام تقى الدين السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى . وكتاب مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الإيمان للقرطبى الخزرجى وحقق هذا الكتاب وطبع فى القاهرة وحقق مرة أخرى وطبع فى المغرب .

زعم كثير من الدارسين الأوروبيين للإسلام أن القرآن يشتمل على الكثير من الكذب وأن محمدا ليس بنبى ، وأنه كان أداة للشيطان استعان به على فعل الشر ، وأن الإسلام هرطقة أى بدعة مسيحية كما نقله بطرس المحترم عن أحد اللاهوتيين اليونان . بل لقد نادى بطرس بوجوب إعلان أن المسلمين كفرة[1] .

ولا يفوتنا أيضاً ونحن نؤرخ لتاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية أن نذكر ما دار بين أبيلارد وبين بطرس المحترم بعد أن تمت ترجمة القرآن لأول مرة بأمر الأخير وعنايته ، أرسل بطرس إلى برنارد الترجمة وطلب منه أن يكتب نقداً عليها ، ويفندها قائلا له إن آباء الكنيسة لم يتركوا لبدعة أن تظهر وتتغلب فى أيامهم دون أن يعترضوها بكل ما أوتوا من قوة ، ولم يهملوا أن يكتبوا ضدها ، ويجادلوا أصحابها . وهذه الديانة الإسلامية تعد خطأ الأخطاء ، إنها حمأة أو بالوعة Cesspool قد

---

(١) انظر وات ، فضل الإسلام ١٠٥ .

صبت فيها معظم البدع ، التى لوثت سكان نصف العالم . إننا نتطلب عملا بحجم مناسب (فى معارضة الإسلام) ، هذا العمل حتى وإن لم ينجح فى تنصير المسلمين ، فإنه على الأقل يمكن أن يتخذ كوسيلة لتقوية عقيدة أبناء ملتنا (النصارى)[1] . وبهذا جذب رجال الدين النصرانى الديانة النصرانية إلى أقصى الطرف الآخر ، بحيث جعلوها على طرفى النقيض مع الإسلام ، وعليه فقد ندرت إن لم تكن انعدمت بالمرة محاولات التوفيق ، أو حتى ترقيع العلاقة بين أهل الديانتين وذلك بسبب وجهة النظر المتعسفة تلك .

يعتبر توما الأكوينى أكثر مفكرى القرن الثالث عشر الميلادى اعتدالا وعبقرية وأسبقهم ، وربما على الإطلاق ، فى إلقاء بعض الضوء على سيرة النبى ﷺ ودعوته والمقارنة . (ولو السلبية) بين الإسلام والنصرانية .

فقد أشار توما الأكوينى إلى محمد ﷺ ، والإسلام على سبيل المقارنة على أن يتوصل من خلال هذه المقارنة إلى إثبات تفوق النصرانية المطلق على الإسلام ، إذ أنه بعد أن أثبت صحة العقيدة النصرانية بالأدلة النقلية والعقلية من وجهة نظره ، قال : " إن مثل هذه الأدلة والحجج لا وجود لها فيما جاء به أمثال محمد ممن أسسوا فرقاً دينية ، إن أدلة محمد على صحة دعواه ساذجة وسطحية ، إنه قد خلط الحق بكثير من القصص

---

(1) Sweetman . Islam and Christian Theology . Part 1 Vol 2 p . 76 .

والتعاليم الزائفة التى لا سند لها فى التاريخ " ، ولابد من ملاحظة أن اعتراف توما الأكوينى ببعض الحق فى القرآن الكريم مرتبط تماماً بدعوى انتحال الرسول ﷺ من كتب اليهود والنصارى ، وبعبارة أخرى فإنه يريد أن يقول بأن ما جاء فى القرآن من أخطاء فإنه من وضع محمد ، وأما ما جاء به من صواب أو حق فإنه مأخوذ من كتب النصارى . وينكر توما الأكوينى معجزات الرسول ﷺ ويصف أصحاب النبى بالجهل ، وبأنهم رجال لا علم لهم قط بالإلهيات .. " وأنهم كانوا يعيشون فى الصحراء حياة أقرب إلى " حياة الحيوانات " يقول مونتجمرى وات فى التعليق على كلام توما الأكوينى : وربما كان هذا الوصف منه لأصحاب محمد بسبب قبولهم غير المحدود وغير المشروط لأى شىء قاله محمد ، ولسنا ندرى كيف يدعم وات زعم الأكوينى هذا المجافى للحقيقة والإنسانية ، ومن ذا ياترى يوافق على وصف أصحاب محمد بأن حياتهم كانت أقرب إلى حياة الحيوانات ، وهم الذين نبغوا فى العلوم وترقوا فى السلوك والحضارة إلى درجة أظهر وأشهر من أن تنكر أو تجحد .

بل كيف يتجاهل الأكوينى حياة الرهبان ورجال الكنيسة بشكل عام والذين كانوا يعيشون حياة فقيرة وتعيسة جداً وكانوا أبعد ما يكونون عن النظافة والأناقة . وعلى أى حال فإن بساطة العيش هى شعار الأنبياء والصالحين من أهل الأديان .

وبالإضافة إلى هذه الطعون يتهم توما الأكويني محمداً ﷺ بتحريف الكتاب المقدس بغرض تأييد مدعاه في أن هذا الكتاب قد بشر بمقدمه ﷺ كنبي ، وأين كان يا ترى هذا الكتاب ؟ وما هي الأدلة على وجوده في يد محمد أو في يد أي من معاصريه بوجه عام ؟ .

وبينما يقرر توما أن الإسلام يحتوي على بعض الحق فإن غيره ممن استهدفوا الإسلام يتهم محمداً بأنه كان يدس السم في العسل ، ويزين باطله بحلى الحق وذلك حتى يروج كذبه على الناس .

قال أحد هؤلاء المتجنين فيما ننقله عن وات : " لاحظ في الكتاب (أي القرآن) بأسره دهاءه الرائع المتمثل في أنه (يعني محمداً ﷺ) كلما أراد أن يقول شيئاً شريراً ، أو يعيد إلى الأذهان شيئاً شريراً ، ذكره من قبل ، أسرع بإضافة كلام آخر عن الصوم ، أو عن الصلاة أو عن حمد الله ".. (P.101) فهذا المفترى قد جعل القرآن من كلام محمد ﷺ ،ووصفه بأنه خليط من الحق والباطل وبأنه يكرر نفسه .

وبالمقابل كان هؤلاء الجاهليون الغربيون يروجون لفكرة سمو الديانة النصرانية وتفوقها على الإسلام ، " فالكتاب المقدس عندهم واضح جد الوضوح في كلامه عن الحقيقة الإلهية ، وهو يحمل في طياته نموذجا عملياً مطلقا ، صالحا لكل زمان ومكان ،

وأن التعاليم النصرانية تستهوى عقول الناضجين والمتعلمين والمثقفين ، وأنها تجد فى الشواهد التاريخية سنداً صادقاً يؤازرها " (P. 101 , 102) .

هذه عبارات المستشرق وات قدمها فى شكل استنتاج من كلام سلفه من المدافعين عن النصرانية ، وسواء أكان هذا الكلام استنتاجا ، أو تفريعاً وإضافة فإنه يتجاهل المشكلات العلمية والمعضلات التاريخية والمخالفات المنهجية التى تعشش على الكتاب المقدس ، والتى ولدت فيما بعد علم نقد النص الدينى فى أوروبا فى العصر الحديث ، ناهيك بمشكلة المشكلات ، أعنى نظرية التثليث والحلول والتجسد ، فإنها خارجة عن نطاق العقل الطبيعى أصلاً ، وكما ذكر توما الأكوينى نفسه فإنه لم يستطع البرهنة على صحتها ، ولكنه اكتفى بالقول " إن الاعتراضات عليها لا يمكن إثباتها " وإنه لمن لوازم العرض ، ونحن نسجل هذه المطاعن الغربية ضد الإسلام أن نشير إلى اتهامهم لهذا الدين بالحض على العنف فقد ذكر توما الأكوينى فى كتابه Summa Theologie أن أتباع محمد ، الذين وصفهم بالحيوانية ، كانوا من الكثرة بحيث مكنوا محمداً من إجبار الآخرين بالقوة العسكرية على اعتناق الإسلام " (P . 101) .

ومن هذه البذرة التى ألقت بها يد توما الأكوينى فى التربة الغربية نبتت فكرة أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، حتى أن جيبون Gibbon لما أراد أن يرسم صورة للإسلام فى كتابه Decline and Fall of the Roman Empire رسم صورة رجل

يمتطى جواداً وهو يحمل فى إحدى يديه سيفاً ، وفى الأخرى كتابا ، هو القرآن ، وكأنه يخير ضحاياه بين اعتناق الإسلام ، أو ضرب رقابهم بالسيف[1] . ويصور ألفونسو عنف المسلمين بقوله (إن المسلمين شديدو الحماس لدينهم لدرجة أنهم يقطعون دون رحمة رأس أى مخلوق يهاجم هذا الدين فى أى إقليم يسيطرون عليه) .

وهذا كلام مجافٍ لواقع الدعوة الإسلامية التى فتحت صدرها لأهل الديانات الأخرى ، بل وأعلنت حمايتها لهم ، وقد أجملت وأحسنت حتى مع الذين أساءوا إليها بالطعن فى كتابها أو نبيها وأتباعه سواء عن طريق الهجوم المباشر ، أو عن طريق تأليف الكتب والرسائل . فرجل مثل يوحنا الدمشقى فى الشام وابن النغريلة فى الأندلس قد هاجما الإسلام وطعنا فيه ولا تزال كتبهم باقية ومتداولة إلى اليوم . وينصف مونتجمرى وات عندما يقول : " الواقع أن الصورة الأوروبية للإسلام هى أبعد ما تكون عن الحقيقة وقد بينا فى الفصل الأول أن اليهود والنصارى وأتباع الديانات الأخرى التى يعترف بها الإسلام لم يخيروا بين الإسلام والسيف ، وأن الذين خيروا بينهما هم عبدة الأوثان وحدهم ، ولم نسمع الكثير عن حدوث مثل هذا الفعل خارج حدود شبه جزيرة العرب . أما النشاط الحربى للمسلمين ، وهو الذى يملأ خبره كتب التاريخ ، فإنما أدى إلى

---

(1) See Edward Gibbon Vol . 5 , ed . j . B . Bury (London , 1909 .1914 P.332) and Bernard lewis . Islam and the west p. 13 ff.

توسع سياسى ، وجاء اعتناق الإسلام نتيجة للدعوة إليه أو نتيجة الضغط الاجتماعى .

وفى تلك الصورة التى زوروها عن الإسلام بأنه دين عنف إيحاء بأنه (دين) مخالف تماماً لصورة المسيحية باعتبارها دين سلام انتشر عن طريق الإقناع ، ومن الغريب أن يصدق الرجال المشتركون فى الحروب الصليبية أن دينهم دين سلام ، وأن دين خصومهم دين عنف .. " إن رد مونتمجرى وات على دعوى انتشار الإسلام بالقوة جاء مختصراً والمعروف تاريخياً أن الحروب الصليبية ما هى إلا صفحات كتبها المسيحيون الغربيون بالدماء وعمقوها بالأشلاء ، هذا بينما كان المسلمون يتعاملون مع أعدائهم المهاجمون بالرحمة كان الأوروبيون ، الذين جاءوا من أوروبا بزعم الدفاع عن بيت المقدس يقتلون أسراهم من المسلمين ، ويمثلون بجثثهم ، ويبقرون بطون الحوامل بل ويحرقون الجثث ويذرونها فى الهواء ، كما فعلت الكاثوليك فى أسبانيا بالمسلمين واليهود . ومن المعروف تاريخياً أن القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى عند موته قد أوصى بأن توزع ثروته على فقراء المسلمين واليهود والنصارى دون تمييز .

ولقد عاش النصارى واليهود مع المسلمين فى الأندلس جنباً إلى جنب فى ظل الدولة الإسلامية وتحت رعاية خلفاء يحكمون بالإسلام ، وكانت اللغة العربية هى لغتهم جميعاً ، وعلومهم ومعارفهم وثقافتهم واحدة ، اللهم إلا ما أملته خصوصيات كل طائفة ، بل لقد وجد اليهود فرصتهم فى الوصول إلى أعالى

المناصب والمواقع الرسمية فى الدولة ، كما تمكنوا فى ظل الحرية ونظام الشورى الإسلامى أن يطوروا آدابهم ولغتهم العبرية ، وأن يساعدوا على حل مشكلات كانت تعانى منها أقليات يهودية أخرى خارج الأندلس [1] .

وظل موقف الإسلام هو هو بالنسبة لأهل الكتاب حتى اليوم ، وذلك لأن موقف الإسلام ثابت وملزم للمسلمين دائماً لأن مصدره القرآن والسنة ، وليدن يصح إيمان المسلم إلا بالتسليم لحكمهما والنزول على أوامرهما وتعاليمهما .

هذا الرصيد من التسامح الإسلامى ومردوده الأدبى والثقافى والاجتماعى لم يشفع للمسلمين عند أوروبا فى طور تقدمها وسيادتها ؛ إذ لا تزال تعدو عدو الأسد تجاه مصالحها فى العالم الإسلامى وتزحف كالسلحفاة فى ريب وتوحش وتهمة نحو بناء علاقات طيبة ومستقرة تقوم على الثقة والود والصداقة المتكافئة ، وتبادل المصالح مع المسلمين .

فبينما يتقدم المسلمون خطوات واسعة فى التفاهم مع الغرب والتعاون مع شعوبه فى كل مجالات الحياة تتأخر أوروبا خطوات فى تقدير هذه المشاعر الإسلامية والعربية تجاهها . بل إنها ترى فى الإسلام عدواً مناهضاً ومنافساً قوياً ، كما ترى فى

---

(١) انظر نورشيف رفعت . آراء ابن حزم فى اليهود واليهودية ، رسالة دكتوراه بالإنجليزية ص ٩٥ – ٢١٨ . دوزى Dozy Reinhart - Spanish Islam , trans . By F . G . Stokes , (Pakistan , Karimsons , 1978) . روجر كولينز Roger Collins Early Medieval Spain . 88 F ووات فضل الإسلام ص ٦٧ .

المسلمين أعداء متربصين ، وفى الوقت نفسه فإن الغرب ينظر إلى المسلمين بصفة عامة على أنهم همج ومتطرفون ، وإرهابيون ، وإلى حكامهم على أنهم ديكتاتوريون يحكمون بالحديد والنار ، وأن حقوق الإنسان تنتهك فى العالم الإسلامى ، وهناك دراسات فى الغرب عن الجماعات الإسلامية والشعارات التى تطرح فى العالم الإسلامى ويساء تأويلها وتستغل ضد المسلمين .

ومن المفيد أن نشير إلى الضجة الإعلامية الغربية المستعرة ضد المسلمين وبالأخص فى منتصف السبعينات وإبان ظهور الصحوة الإسلامية كتبت إحدى المجلات الأمريكية تقول : " تتصارع الثروة النفطية ، وحركة العلمنة فى الشرق الأوسط مع طرق الحياة القديمة ، مما أوجدا اندفاعاً إسلاميا للعودة إلى الجذور وتسترسل المجلة قائلة : " إن التعصب الدينى يتحرك باتجاه المواقع السياسية الأمامية فى أرجاء العالم الإسلامى من كازبلانكا وحتى مضيق خيبر ! .

وقد استشهد المنصر ستانلى مونيهام بهذا الكلام فى خطابه الذى اعتمده مؤتمر التنصير العالمى بجلين آيرى بولاية كلورادو على خطر ظهور الصحوة الإسلامية أو كما أسماها هو " الجانب الثورى للإسلام " ، والذى نسى الغرب وجوده كما يقول المنصر نفسه فستانلى مونيهام يستعدى الغرب على الإسلام والمسلمين بمثل هذا الكلام .

لقد أصيبت أوروبا بما يشبه التسمم بسبب ما قدمته إليها المصادر البيزنطية من معلومات شائهة عن الإسلام والمسلمين

فى العصور الوسطى والإعلام الغربى فى العصر الحديث ، فقد روج الكتاب البيزنطيون بين الشعوب اللاتينية أن الإسلام يتيح لأتباعه الممارسات الجنسية وحتى الشاذة منها ، وأنه يطلق العنان لإشباع الغرائز الدنيا للإنسان ، وهذه الإباحة التى أطلقها الإسلام للمتع الحسية هى من وجهة نظرهم أحد أسباب دخول الناس فى الإسلام ، وكثيراً ما ادعى الكتاب البيزنطيون أن الإسلام لا يضع حدا معيناً لتعدد الزوجات ، فإنه من المباح أن يتزوج المسلم بسبع عشرة امرأة على حد تقدير أحدهم ، وإن كان بعضهم قد عرف أن الإسلام لا يبيح الزواج بأكثر من أربع ، ومن أجل أن يثبت رجال الدين المسيحى تلك المعانى المجافية للإسلام ، ولواقع المسلمين فى أذهان جماهيرهم فإنهم قد قاموا بترجمة بعض آيات القرآن الكريم بطريقة توحى بمعنى جنسى منفر ؛ والقرآن كله ، من أوله إلى آخره ، برىء تماماً من تلك التهم الباطلة (١) .

ولقد ذهب الشطط بأحدهم أن يدعى أن فى القرآن آية تبيح الزنا ، ولسنا ندرى ما هى هذه الآية التى يزعمها الكاتب دون أو هى دليل .

لقد زعم هؤلاء الكتاب الخياليون أن الإسلام يبيح الشذوذ الجنسى ، بل ويبيح ممارسة الجنس مع الحيوانات ، وتمخض أحد هؤلاء المفترين عن فكرة أن تصوير القرآن للمتع الحسية

---

(١) فضل الإسلام على الحضارة الغربية . ص١٠٣ .

فى الجنة ، ومنها استمتاع المؤمن بالحور العين ، يعتبر من فضائح الإسلام ، وكما نوهنا به من قبل فإنه لم يفت هؤلاء الطاعنون العصابيون أن يطعنوا فى حياة رسول الله ﷺ الزوجية ، ولهم فى هذا الصدد افتراءات وأكاذيب لا أساس لها من الصحة أو الأخلاق .

فالإسلام على عكس ما صوره هؤلاء يقوم على الطهر والعفاف ، طهر النفس ، وطهر القلب ، وطهر العقل ، والضمير ، إن قواعد الإسلام التشريعية والخلقية لم تقدم أى استثناء من قاعدة عقلية أو خلقية لازمة شرعاً وعقلاً ، وإن الحياة الإنسانية والاجتماعية محل حياطة وصيانة من الإسلام . فالإسلام لا يكتفى بتحريم الزنا واللواط ، والسحاق ، وإتيان البهائم ، بل إنه يحرم كذلك كل شىء يتصل بهذه الممارسات تحريماً قاطعاً ، وذلك كالسفور ، وإبداء الزينة لغير المحرم والخلوة بين الرجل والمرأة الأجنبيين ، أو مداهمة البيوت دون استئذان ، أو الدخول على الناس فى الأوقات التى يختلون فيها بأنفسهم ، وتحصيناً للمجتمع ووقاية له من هذه الشرور والأمراض شدد الإسلام فى الأمر بالزواج عند الاقتدار واليسار ، وأباح الزواج بأكثر من واحدة لمن خشى على نفسه الوقوع فى الزنا ، وأباح الإسلام الطلاق بشروطه ودواعيه المادية الأدبية إذا خيف على الزوجين أو أحدهما من الانطلاق فى الشر أو الانجرار وراء الشهوات فى حالة بقائهما معاً على كره منهما ، أو من أحدهما للآخر .

إن الكتاب البيزنطيين وكلهم من رجال الدين النصرانى للأسف قد صدروا عن مثل هذه الاتهامات والفرى (جمع فرية بمعنى الكذب) الزائفة إما من باب الإسقاط أى خلع ما فى نفوسهم ، على المسلمين وإما أنهم أرادوا أن يلمحوا للقارىء بأن المسيحية هى ديانة الطهر والعفاف ، وأن المسيحيين وحدهم هم الأطهار والأبرار كما ذكرناه آنفاً ؛ وإذا كان هذا هو بالفعل غرضهم فإنهم قد تجاهلوا للأسف المخالفات والانتهاكات التى قام بها كثير من رجال الكنيسة ، فضلاً عن عامة النصارى .

ولقد انتهى الحال ببعض رجال الكنيسة فى وقتنا الحاضر إلى اعتبار الجنس منحة إلهية ، وإلى المناداة بالإباحة الجنسية وإلى التقنين مسيحياً للشذوذ الجنسى كما بينته بالتفصيل فى بحثى عن المرأة فى الإسلام [1]. ولكننا ما دمنا نبحث عن عوامل الاتفاق والمبادىء المشتركة بين المسلمين والنصارى فى محاولة لتجميع الشعوب فإننا نقبض أيدينا عن مثل هذه الانتهاكات والمخالفات الخلقية والدينية لخصوم الإسلام فى القديم والحديث ، وسوف نكتفى فقط بعرض دعاواهم للرد عليها بطريقة علاجية ووقائية ما أمكن ، بحيث تكون مادتنا صالحة للحوار والاعتبار ؛ ولتغيير وجهات النظر فيما يجوز فيه التغيير .

ومن المفيد هنا أن ننقل كلام وات فى تعليل تشويه الأوروبيين لصورة الإسلام منذ هذا الزمن البعيد ، يقول وات :

(1) see M . Abu Laylah The Status of Women from the Islamic Perspective . cairo 1416 AH . 1996 cd .

إن هذا التشويه المتعمد كان نتيجة عدة أمور : شعور أوروبا الغربية بالنقص عند مواجهتها للحضارة الإسلامية وذلك للتقدم العلمى الذى أحرزه المسلمون فى كثير من الميادين ، وأيضاً للرفاهية التى كان يعيشها أثرياء المسلمين فى هذا الوقت (هذا من الناحية العلمية والاجتماعية) ومن الناحية العسكرية فقد كان المسلمون يمثلون قوة أثارت خوف الشعوب الأخرى ، وبخاصة إذا عرفنا أن المسلمين كانوا حريصين دائماً على الظهور بمظهر المتفوق ؛ ويشبه وات مشاعر أوروبا بالنسبة للمسلمين بمشاعر طبقة محرومة فى دولة عظيمة ، وقد تحول النصارى كما يتحول أبناء الطبقة المحرومة إلى الدين فى سعيهم لإثبات وجودهم فى مواجهة الجماعة صاحبة الامتيازات . ويعتبر وات أن لجوء الأوروبيين إلى الحروب الصليبية كان أحد وجهتى هذا التحول .

ويعتبر وات أن تشويه الأوروبيين لصورة الإسلام كان ضرورياً لتعويضهم عن إحساسهم بالنقص وأن حركة القديس بطرس المحترم لترجمة القرآن وكتابة ملخص عنه ، واجتذاب بعض ذوى النبوغ . مثل هيرمان الدالماسيبى ، وروبرت أوف كيتون اللذين كانا مهتمين بدراسة الفلك يعتبر أيضاً من قبيل الإحساس بالنقص تجاه تقدم المسلمين فى العلوم والمعارف وفى المنهج العلمى .

ومع تقديرنا لجهود وات فى استبطان أسباب الحساسية الأوروبية ضد الإسلام ، فإننا نلاحظ أن هذه الأسباب قد زالت

ودالت ولكن الحساسية لا تزال موجودة ، إنها تبدو وكأنها أمراض مزمنة ، فالغرب بقوته العسكرية ، والتكنولوجية والاقتصادية لم يعد لديه مبرر صالح للتمسك بعقدة الخوف من المسلمين ، وبخاصة بعدما سيطر على معظم بلادهم ومقدراتهم ، بل وأصبح المسلمون عالة على الغرب فى كثير من شئون الحياة . ومع هذا فتشويه صورة الإسلام والمسلمين لا يزال هو هو بل ربما ازداد حدة وقتامة ، واتسع مداه أكثر من ذى قبل ، فبعد أن كان هذا الموقف المنحاز قاصراً على بعض طبقة رجال الدين ، شمل الآن رجال السياسية والإعلام والفكر بصفة عامة ، وبالتالى فقد أثر على الرأى العام الغربى ، وشكل تياراً عاماً ضد المسلمين والعرب .

وإذا كنا قد أثرنا هذا التساؤل المهم ، كتعليق على تشخيص وات لداء الحساسية التى أصيبت بها أوروبا ، وظلت تعانى منها بالنسبة للإسلام والمسلمين فإننا لا ندين الغربيين جميعاً ، وفردا فردا لاتخاذ هذا الموقف ، فإنه يوجد بلا شك المنصفون للإسلام دائما أو فى بعض المواقف ، بل إن من هؤلاء المنصفين من أدان الموقف الأوروبى والخطاب الغربى تجاه الإسلام والمسلمين ، بل ومنهم من اتهم أوروبا بالتحيز وبالحيف تجاه الشعوب المستضعفة أو الشعوب غير الغربية ، واعترض وبشدة على مواقف بلاده بالنسبة لقضايا كثيرة فى العالم .

ويهمنا هنا كذلك أن ننقل كلام وات الذى يبدو موضوعياً ومنصفاً وهو خطوة على طريق فهم الآخر غير النصرانى يقول ،وكانت لصورة الإسلام التى لفقها الكتاب المسيحيون فى

ذلك الوقت فى إقناع المسيحيين الآخرين بأنهم فى حربهم ضد المسلمين إنما يحاربون من أجل نصرة النور على قوى الظلام . وأنه حتى إذا كان المسلمون أقوياء فإن دينهم ، يعنى النصرانية خير من الإسلام .

فليتحدثوا هم إذن عن النور والظلمة ، غير أننا فى عالم اليوم ، وبفضل ما أسهم به فرويد من أفكار ، نعلم جيداً أن الظلمة التى ينسبها المرء إلى أعدائه ما هى إلا إسقاط للظلمة الكامنة فى أعماقه هو ، والتى يحاول أن يخفيها ولا يريد الاعتراف بها . وعلى ذلك فإنه ينبغى علينا أن ننظر إلى الصورة الشائهة للإسلام باعتبارها إسقاطاً لما اكتنف عقول الأوروبيين من جهالة ، فأما العنف والإفراط فى إشباع الشهوات اللذان اتهم بهما المسلمون ، فكانا شائعين فى أوروبا أيضاً على الرغم من المثل المسيحية العليا ؛ فالشهوة الجنسية فى الديانة المسيحية تؤذى الروح وتحول بينها وبين الخلود . وعلى ذلك اعتبرت عزوبة الرهبان أسمى من الزواج . ومن ذلك فإن الأفراد العاديين ، - ولاحتى ، فى حالة تشدقهم بالحديث عن فضل العزوبة على الزواج - كانوا يتصرفون فى الواقع على أساس أن إشباع الشهوة الجنسية أمر حميد .

ولا أدل على نمو وعى الأوروبيين المسيحيين بأنفسهم من أن بعض الشخصيات البارزة منهم استطاع أن يدرك أن الصورة الأوروبية للإسلام ترمز للشرور القائمة فى أوروبا ذاتها .

محتويات الكتاب

مطابع الاهرام التجارية - قليوب - مصر

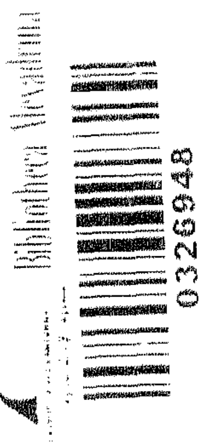
ترقبوا فى العدد القادم

الجذور التاريخية والجسور الحضارية

بين الإسلام والغرب

القسم الثانى

أ. د. محمد محمد أبو ليلة





مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر